بذور الرشد

إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ

تفسير

سُورَةِ الحَشْرِ

ٱلۡمُيسَّر

• **عنوان الكتاب:** بذور الرشد، تفسير سورة الحشر " الميسر "
• **اسم المؤلف:** د. محمد باباعمي
• **الطبعة الأولى:** 1440هـ - 2019م
• **مقاس الكتاب:** 125 × 190
• **عدد الصفحات:** 120
• **ردمك:** ISBN 978-9931-735-02-1
• **الإيداع القانوني:** السداسي الأول، 2019.

Copyright © 2019 Kitabook

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

بدور الرشد

تفسير سورة الحشر

المُيسَّر

محمد باباعمي

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

بنيَّة العمل

لا يعنيني في شيءٍ أن أفسِّر القرآن الكريم، فقد فسَّره علماء كرام؛
ولكني أحيا به ومعه، ثم أتخذه منطلقا لفكري، وصبغة لفعلي...
في رحلةِ العمر، وقد جاوزت الخمسين حِجّة؛
وهي مرحلة لا أرجو معها ولا بعدها إلَّا معية الله جَلَّجَلَالُهُ،
وصحبة كلامه، وكنف رحمته ورضاه ؛
أسأله سبحانه صلاح أمر أمَّتي، وأن يفرج عنها،
ويظهر دينه على سائر الأديان،
وأدعوه أن يصحح بكلامه الحكيم انحراف البشرية
الفكري والثقافي والحضاري،
وأن يسخرنا في إطار «نموذج الرشد»،
وبالاستعانة بـ«بذور الرشد»، لهذا السبيل،
أُشهدُ اللهَ أن ليس لي في الدنيا أمنية، إلا أن يجتمع عدد من العلماء،
فيجتهدون في علوم القرآن والتفسير، وعلوم المعنى والتنزيل؛ بعقل
جَمْعِيٍّ، داخل مراكز بحثية دائمة؛ تنفق فيها أموال أثرياء الأمة،
وتسخر لها سلطة تحميها، وتجند لها سواعد وعقول
خيرة علماء هذه الأمة...
لنحقق بذلك نقلة حضارية توحيدية، نبتغي ذخرها عند الله تعالى
وما بين يدي القارئ الحبيب هو صورة لهذا المعنى،
وهو ظل لتلك النية، في انتظار تحقيق المطلوب، وبلوغ المرغوب
اللّهُمَّ فاشهد، وبلغ المقصود

فريق العمل

• الأمانة والتنسيق:	أ. جابر ناصر بوحجّام
• الإشراف الفني:	أ. جابر موسى باباعمي
• التصميم والتنفيذ الفني:	أ. ياسين بوشارب
• متابعة النشر والطباعة:	أ. محمد الحاج سعيد
• المراجعون:	د. حمو الشيهاني
	د. عماد بن عامر
	د. بشير قادرة
	أ. جابر ناصر بوحجّام

مقاصد تفسير الرشد

- تحبيب كلام الله تعالى للناس بعامَّة، وللناشئة والشباب بخاصَّة.
- عرضُ التفسير في صورةٍ غير منفِّرة لمن لم يألف مطالعة المجلدات.
- الوصول بكلام الله تعالى في حياتنا اليومية إلى حال التمثُّل والتناغم، بعيدا عن حال التكلف والانفصام.
- الخروج من دائرة الاختلاف في الأصول وتخطئة الآخر؛ إلى سعة المعاني المتفَق عليها، والتي تمثل أصل الدين ولبه؛ مع اعتبار الأوجه التي تؤشر إلى رحابة الدين، والتي تمثل الفروع، الجائز الاختلاف فيها.
- اعتماد مصادر التفسير كلِّها: من سنة نبوية، وآثارٍ عن الصحابة، وأقوال للتابعين، وتفسير مَن بعدهم عبر القرون؛ بعيدا عن جفاء القطيعة.
- الإسهام في تحذير الناس من الجرأة على كلام الله، والتقول على الله تعالى بما لم يقل.
- اعتبار اللغة مصدرا أساسًا لفهم الآية القرآنية؛ لكنه غير كافٍ لوحده.

- توظيف الجملة وحدة معيارية للفهم بديلا عن النص المسترسل الطويل؛ وذلك استفادة من منهج القرآن الكريم في اتخاذه الآية وحدة معيارية لبنية المعنى.
- استثارة العمل بعد فهم الآية القرآنية، ذلك أنَّ الغرض من كلام تعالى هو «الامتثال والتمثل» لا مجرد الحفظ والأداء والفهم.
- الدعوة إلى إعمال العقل الجماعي في إنجاز مشاريع لا حصر لها، من مداخل معرفية متجاوزة للتخصص، في فهم كلام الله تعالى.
- الدفاع عن الفهم المطيافي، الذي أسسنا له منذ عقدين من الزمان «المبني على اعتماد الموشور المعرفي، المكوَّن من عقول متباينة، وتخصُّصات مختلفة، وحالات ونماذج معرفية متعددة... للوصول إلى فهم ديناميكي حركي للآية القرآنية».
- تحريك مراحل تحويل المعلومة إلى سلوك، من خلال بذور الرشد: السؤال، الافتراض، الرؤية الكونية، القاعدة الكلية، الصورة الإدراكية، مخطط الفعل، الفعل الحضاري.

بين يدي السورة

أحكام تنتظر التكييف:

سورة الحشر تسمَّى كذلك سورة «بني النضير»؛ هي سورةٌ مدنيةٌ بالإجماع؛ ولقد اشتملت على كثيرٍ من الأحكام المتعلِّقة بمرحلة «إقامة الخلافة»، و«الظهورِ» على الكفار والمشركين، وتشريع أحكام الجهاد، وصياغة العهود والمواثيق، وضبط العلاقة مع أهل الذمَّة، ومع المنافقين، ومع المسلمين فيما بينهم على اختلاف مشاربهم؛ وتشتمل السورة كذلك على إرساءِ أساليب الردع، وإقامة الأحلاف والتكتلات، ونشر السلم في ربوع بلاد الإسلام.

مفهوم «أحكام الخلافة» هو المصطلح الأصيل في التراث التشريعي الإسلامي، ولقد استبدل به مفهوم «أحكام الدولة»؛ غير أنَّ مفهوم «الدولة الإسلامية» ينضح بكثير من «الماحول»، ومن «الصورِ الإدراكية المعاصرة للدولة الحديثة»، «ومن الأحكام القبلية والمقولَبة»؛ وفيه خلطٌ بين ما هو شرعيٌّ مؤصَّل، وما هو تبريريٌّ لواقع باتَ منحرفا عن أصول الشرع الحنيف.

والمقرر أنَّ الرسول ﷺ خليفةٌ وإمامٌ للمسلمين، وليس

«رئيس دولة» بالمفهوم المعاصر «للرئيس» و«للدولة»، ولا هو «رئيس حكومة» بالمعنى الذي نفهم به مصطلحي «الرئيس» و«الحكومة»؛ وليس رسولُ الله ﷺ «ملِكا أو سلطانًا» كما هو الحال في النظم الملكية المورِّثة للمنصب؛ سواء أكانت صلاحيته مطلقة كبعض الدول العربية، أو محدودة ورمزية كحال بعض الدول الملَكية الأوروبية والأسيوية.

ثم يقيَّد المفهوم بصفة الرُّشد والرشاد، في عهد الصحابة رضي الله عنهم؛ ويقال «الخلافة الراشدة»، وهو المفهوم الأكثر رسوخًا في التراث السياسي للمسلمين، ومنه نُحت مصطلح «الخلفاء الراشدون»؛ على اختلاف كبيرٍ بين المؤرخين في اعتبار بعضهم من الراشدين، بخاصَّة ما كان منذ خلافة سيدنا عثمان، ثم خلافة معاوية بعد ذلك. ودون الولوج في إشكالية «السنوات الست الأخيرة من خلافة عثمان»، وكذا ما كان من أمر «معاوية بن أبي سفيان» في مواجهة الإمام علي بن أبي طالب، وما استتبع ذلك من «توريث الحكم» مطلقا، على يد بني أمية، إلى أن سقطت رايتهم على يد بني العباس، فجاء حكمهم كذلك وراثيا.

دون الولوج في هذا الجدل الذي قتلته المصادرُ بحثًا، واختُبِرت فيه التوجُّهات والقناعاتُ، بل وميزانُ العدلِ والقسطِ، والصدقِ والرشد؛ بين من تحرَّى الحقَّ فأدركه،

ومن تحراه فأخطأه؛ ومن تحرى الباطل فلم يدركه، ومن تحراه فأدركه؛ بين هؤلاء وأولئك يبقى السؤال الجدير هو:

كيف نكيف «الخلافة الراشدة» اليومَ، في عالمنا المعاصِر، في مقابل صورة «الدولة الحديثة» التي صبغت جميعَ أنظمة الحكم على اختلاف مسمياتها: جمهورية، دستورية، ملكية، دكتاتورية، رئاسية، نيابية...؟

أي مَن يملك اليوم أن يقول: إنَّ وريث الخلافة الراشدة في عالمنا المعاصر يتمثل في «الجهة الفلانية» أو «البلاد العلانية»، أو «في هذا النظام أو ذاك»؟

ولقد حملت «المعارضةُ» في العالم الإسلامي، بشقيها «السلميّ» و«الحربيِّ»، شعارَ «الدولة الإسلامية»؛ فكانت غالبا بنقدها أو بمحاربتها للدولة الحديثة، جزءا وتمثلا واضِحًا للدولة الحديثة، إلاَّ ما شذَّ والشاذُّ لا يقاسُ عليه؛ بغضِّ النظر عن «شعاراتها»، و«خطاباتها»، و«وعودها»، و«صدقها وكذبها»، و«صوابها وخطئها»... فهي في ذلك تتفاوت تفاوتا كبيرا.

بأسلوب عملي مباشر، نقول:

من خلال سورة الحشر بخاصَّة وفي ثنايا القرآن الكريم، والسنَّة النبوية الصحيحة بعامَّة أحكامٌ تتعلق بالخليفة، وبالخلافة؛ شرْطَ أن يكون رشيدًا، وتكون راشدةً؛ ولا يمكن

بأي حال من الأحوال، أن يتبنى حكمٌ جائرٌ، أو صورةٌ لدولة علمانية، أو مَلَكيةٌ مطلقة، مهمَّةَ هذه الأحكام؛ إلاَّ أن يكون ذلك «صوريًّا» و«شكليًّا»؛ مثل أن يُقام حدُّ السارق على مُواطنٍ «بسيط» «غير نافذ»، يدعي حاكمُه أنه بذلك يقيم الحدود الشرعية بنصٍّ شرعيٍّ، ثم يكون هو وحاشيتُه في منأى عن إقامة الحدودِ، بعيدا عن جميع أشكال المحاسبَة والمساءلَة والقصاص؛ بهذا يتحول "الحكم الشرعي بالحدِّ مثلا" إلى صورة من صور التشكيك في دين الله تعالى، وفي صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

ولنمثل لهذه الأحكام بما يلي، حسب الترتيب في سورة الحشر:

1. **الحكم على اليهود**: سواء أكانوا محاربين، أم مسالمين؛ يهودا بالجنس، أو الدين، أو اللون السياسي؟ أو كانوا صهاينة عقيدة، أو تفكيرا، أو ممارسة؟ فمن يتولى مهمَّة ضبط المواثيق معهم، بخاصَّة إذا كانوا هم الطرف الأقوى والغالب؟ فأيُّ دولة، أو حاكم، أو بلاد تستطيع اليومَ أن تمثِّل «الخلافة الإسلامية الراشدة»؛ وتمنح السلْم لمن راعى المواثيق من اليهودِ، كما تعمل على معاقبة اليهود الذين نقضوا العهود والمواثيق، وكانوا سببا في قتل مئات الآلاف، وتشريد الملايين، وسجن ما لا يحصى

من المسلمين..؟ من يملك أن يُنزل إلى أرض الواقع معاني قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ الآيات. ولا ريب أنَّ عبد الوهاب المسيري من خلال موسوعته «اليهود واليهودية والصهيونية» هو أفضل مَن عالج الموضوع باعتماد «النماذج التحليلية»، ووضع الإصبع على الجرح، وصحح كثيرا من الأحكام والتصورات الخاطئة التي تقف حاجزا أمام فهم ظاهرة اليهود في علاقتهم بالعالم أجمع وبالعالم الإسلامي بالتبع؛ ولا يزال عمله ينتظر مَن ينقله إلى مقام العمل والتنفيذ.

2. **أحكام القتال**: مِن مثلِ حكم قطع النخيل ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ﴾؛ أو جميعُ ما شابهه من أحكام السبي، والحرق، والغنيمة، والإجهاز على المدْبر، وأحكام النساء، والأطفال، وغير المحاربين... هل ثمة «خلافة راشدة» اليومَ، تتبنى هذه الأحكام كما وردت في شرع الله، وكما نفذها رسول الله ﷺ؟ أم أنها صارت، وبخاصة في الحروب التي بين المسلمين أنفسِهم، لا تعني شيئًا، ولا تُسرَدُ إلاَّ للحفظ؟ ولا أدلَّ على ذلك من حكم «القتال في الأشهر الحُرم»؛ الذي صار «خبرًا تاريخيًّا»، وغاب أيُّ إمكان لهدنة بين

متحاربين في هذه الأشهر الحرم، وجميع المقاتلين والمحاربين: حكومات ظالمة، ومعارضات متهورة، وجماعات متطرفة... جميعُهم، لا يُقيم وزنًا لهذه الأحكام الخاصة بـ«الخلافة الراشدة».. فكيف نكيِّف إذن هذه الأحكام في ظل واقعنا اليوم؟

3. **الفيء والغنائم والأنفال**: جميع هذه الأموال، التي هي ذات علاقة بالخليفة، وبالخلافة؛ ولها ضوابطُ شرعية: كيف تفهم اليومَ؟ وهل يمكن تكييفها؟ وهل في المقدور العمل بها، حسبما وردت في كلام الله تعالى، وعلى الصيغة التي فهمها رسول الله ﷺ وطبقها؟ علما أنَّ التنظير لها بلغ حدَّ السرَف، في مقابل سؤال «تحقيق المناط»؛ والإنزال إلى خط الزمن؛ الذي بات اليوم لغزا محيرا؟ ونعني بذلك: ﴿مَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ...﴾، ﴿مَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنَ اَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾الآيات.

4. **أحكام الهجرة والإيواء**: ثمة مسلمون هَجروا، أو هجِّروا من بلادهم اليومَ؛ وثمة بلاد عربية وإسلامية لها مواقف من هؤلاء؛ فهل يمكن أن نؤُول إلى ما كان من أمر المهاجرين والأنصار؟ في ظل اختلاط مفاهيم الحق

والباطل، والصواب والخطأ، والحلال والحرام؛ في أمر الهجرة: سواء ما كان مِنها فرديا (حراقة من شمال إفريقيا) على سبيل المثال، أو جماعيا (السوريون أو الماليون) مثلا؟ ففي غياب حقيقة «الخلافة الإسلامية الراشدة» هل يمكن اختزال الأحكام وعظا، وكلاما، وتنظيرا؛ خارجَ دائرة القرار، والقانون، والسلطة، والمواثيق الدولية القاهرة والغالبة...؟

5. **تصفية المنافقين في الداخل**: لا بدَّ لأيِّ أمَّة من وجود عوامل تهدِّد أمنَها، ولا تخلو حقبة في التاريخ ممن يحمل «نار الحطب» ليشعل البيت من الداخل؛ والمنافقون في المجتمع المسلم، سواء في العهد النبوي، أو بعده؛ أضرُّوا بالمسلمينَ ولا زالوا، ونالوا منهم بخداعهم ما نالوا؛ غير أنَّ «خليفة المسلمين» ونبيهم قبل ذلك محمدا ﷺ، حجَّم حركتهم، وكان لهم بالمرصاد، بل كان الله تعالى يخبره عن دواخل قلوبهم ودواغلها؛ فيفضحهم، ويكشف أمرهم، ويذيقهم من العذاب ما يليق بهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ... ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ واليوم نسأل عن «منافقي» البلاد الإسلامية: مَن هم بالتعيين؟ ومن هم بالصفة؟ هل هم ظاهرون، أم أنهم مخفيون؟

هل هم المتحكمون، أم هم المتحكم فيهم؟ وهل من «خلافة وخليفة» يوصَف بكونه راشدًا، فيقي الأمة مزالق هؤلاء؟ أم أنَّ النفاق بات هو الأصل، في بعض السياقات، والإيمانُ هو الفرع التابع؟ وهل تمَّ تقنين النفاق ليصير حالة بدهية «معقولة ـ مقبولة» لدى المسلمين، ولو كان ذلك على حساب قوتهم ومنعتهم؟ ما هي وسائل رعاية النفاق: الإعلام، الاقتصاد، السياسة، العلم، المواثيق، الاستراتيجيات...؟

مثل هذه الأحكام التي نزلت بها سورة الحشر، والتي تفتقد إلى «إمكانية التفعيل» اليومَ وفي عصرنا، وباعتبار مقاييس خياراتنا فرادى وجماعات؛ تُسائلنا:

هل هي أحكام منتهيةُ الصلاحية؟ أي أنها استعملت فقط أوان نزول القرآن، ولم تعد صالحة لهذا الزمان، كما يتبجح بذلك «التاريخانيون» المتعفِّنون؟

أم أنَّ الصلاح والصلوحية انتفيا من الإنسان نفسِه، ففقَد إنسانيته، وفقد إمكانية أن يَصعد بكلام ربه إلى مقام الفعل والتنفيذ والتمثل؟

وتبقى هذه الأحكام تنتظر منا أن نستجيب لها، ونطيع ربنا في شأنها، ونعيد ترتيب قلوبنا حيالها، وترتيب بيوتنا من بابها، ونضبط علاقاتنا مع الخارج؛ حتى نكون أهلاً لكتاب

الله، سهلا لسنة رسول الله ﷺ.

آيتان وسياقان، حيرتان وسؤالان:

في سورة الحشر وصفٌ دقيقٌ لحال اليهود «النفسية» و«الاجتماعية»، بل وحقيقة علاقة بعضهم ببعض، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُومِنِينَ﴾، ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾.

وفي سورة الفتح، وصفٌ آخرُ من الله تعالى للمؤمنين بأوصاف دقيقة، تكشف عما في نفوسهم، وعن حقيقة علاقتهم بربهم وبرسولهم، وعلاقاتهم فيما بينهم؛ قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ اَثَرِ السُّجُودِ...﴾.

هاتان الآيتان نزلتا في سياق العزَّة للمسلمين، والذلَّة للكافرين؛ فهُما بذلك تصِفان حقيقةً لا جدال فيها، وواقعًا لا مراء فيه؛ وهما تضعان المسألة في مستوى «ما ينبغي أن يكون» في حقِّ المسلمين ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وفي حال الكفار واليهود: ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾.

الحيرتان هما: أنَّ البلاد المنسوبة إلى المسلمين في

عصرنا، وهي في أذلِّ مراحل ظهورها، تنقلب أحكامُ الآية في حقهم رأسًا على عقب، فهم اليومَ ليسوا ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، بل تجدهم «رحماء على الكفار أشداء بينهم».

والحيرة الثانية هي: هل مَن يخرب بيته بيديه هم المسلمون؟ أم اليهود؟ أم هما معًا؟ لا ريب أنَّ حكم ربنا حقٌّ، وأنَّ وصفه للمسلمين حقٌّ، ولليهود كذلك حقٌّ؛ وهو وصفُ خالق لمخلوق، عالمٍ لمعلوم، خبيرٍ بمخبورٍ؛ لكنَّ نظرةً إلى الواقع تحيرنا أنَّ مَن يخرب بيته بيديه في عصرنا هم المنتسبون إلى الإسلام، فهل هي مرحلة وظرف قريبا سيزول؟ أم أنه قدرُنا لزمن بعيد؟

والسؤالان هما: هل زالت صفة الإيمان عن المسلمين في زماننا، وحلَّت بهم صفات المنافقين واليهود مجتمعة؟ ثم، متى تتغير القلوب، ويتغير ما بالأنفس، ويعود المسلم إلى رُشده، حاكمًا ومحكومًا، فردًا ومجتمعًا، آمرًا ومأمورًا، عالمًا ومتعلمًا، صغيرًا وكبيرًا، قويًّا وضعيفًا...؟

وتبقى السورة العظيمة: سورة الحشر، ويبقى الكتاب الكريم: القرآن الحكيم؛ ويبقى الله سبحانه: وهو العليم الخبير؛ يبقى جميع ذلك خيرَ ضامن وضمان، أنَّ الحق قديمٌ لا تغيره تقلبات الأيام، وأنَّ الرشد صفات لا مجرد ذوات؛

وأنَّ القوة والغلبة لله ولرسوله وللمؤمنين، شريطةَ أن يكونوا مؤمنين حقًّا، أعزَّاء صدقا؛ مصدرهم في اكتسابهم هذا المقام كلامُ الله، وفيه قوله جل من قائل: ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الاَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

هذا أوان ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾... والحمد لله رب العالمين.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿1﴾

بذور المعنى

- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: بسم الله المتصف بالرحمانية والرحيمية تُفتتح السورة؛ وباسمه يُستعان على إجلاء بني النضير من المدينة، لنقضهم العهدَ، وتبييتهم الشرَّ للرسول ﷺ وللمؤمنين؛ وبرحمةٍ منه سبحانه اجتمعت كلمة المهاجرين والأنصار على نصرة الحقِّ؛ ثم باسمه الرحيم يوحدِّ اللهَ الموحِّدون، ويعلنونها مدوية: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾.
- ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بها استهلَّ

الله سورة الحشر، وبدوامها ختم الله السورة: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ثم إنَّ حزب الله المفلحين الوارد ذكرهم في آخر سورة المجادلة، من صفاتهم أنهم يسبحون الله، ويتناغمون مع الكون الفسيح، في إعلان العزة والحكمة لله ربِّ العالمين.

- ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ قدَّس اللهَ ونزَّهه كلُّ مخلوق من مخلوقاته، معترفا له بقهره وغلبته، وبأنه وحده العزيز الحكيم.
- الكون جميعه مقبلٌ على وظيفته الإيمانية، مسبِّح لله في كلِّ حين؛ ليكون عبرةً للإنسان فيتناغم معه، لا يميد ولا يحيد.
- ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: لا شبيه يساويه، ولا شريك له في الملك ينافسه ويضاهيه، ولا أحد في عزته وجبروته يدانيه.
- العزيز هو الغالب الذي لا يُغلَب، والقاهر الذي لا يُقهر؛ عزته من ذاته سبحانه، وعزة الخلق عارضةٌ، وهي مستمدَّة من عزة ربهم، فهو الذي «**يعزُّ من يشاء، ويذلّ من يشاء**». والله عزيز أي هو معزٌّ وهو واهبٌ للعزَّة.
- وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ له الحكم بلا شريك، وله الحكمة بلا شبيه؛ لا عيب ولا خلل في مُلكه، ولا عبث ولا فجوة

في تدبيره. والله حكيم أي هو الذي يهَب الحكمة من يشاء: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُ وَمَنْ يُّؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

التشغيل والتفعيل

- من جميل التناسب بين سورتي المجادِلة والحشر، أنَّ الله تعالى حدثنا عن «حزب الله» وعن «حزب الشيطان» في الأولى، ثم عرض علينا في الثانية نموذجًا تطبيقيًّا لحزب الله المتمثل في رسول الله ﷺ وصحابته من المهاجرين والأنصار، ونموذجًا آخر عن حزب الشيطان المتمثل في بني النضير، وفي المنافقين الذين مالَؤوهم وساندوهم في خيانتهم الكبرى.
- في أوَّل السورة إضافة ﴿مَا﴾ للأرض، وفي آخرها ﴿السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ بدون ﴿مَا﴾، والفرق في ذلك: أنَّ ما كان وجوده في السموات والأرض معًا وفي آنٍ واحد مثل الروح، والمواد التي فيهما جميعًا؛ فهو في معنى ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾؛ وما كان مقتصِرا على السموات، أو على الأرض؛ فداخل في ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾؛ بما في ذلك الجن، والإنس.
- عن علي رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**من سرَّه أن يُنسأ في عمره، ويُنصر على عدوه، ويوسَّع عليه**

في رزقه، ويوقى ميتة السوء فليقل حين يمسي، وحين يصبح ثلاث مرات: سبحان الله ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا، وزنة العرش؛ ولا إله إلا الله ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا، وزنة العرش؛ والله أكبر ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا، وزنة العرش».

من الفكر إلى الفعل

- التسبيح من المخلوقات جميعها لله تعالى هو تسبيح حقيقة لا تسبيح دلالة فقط؛ ولكن هذا لا ينفي أنها تسبح بالحال لا بالمقال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.
- «سبحان الله ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا، وزنة العرش...».
- ليس للتسبيح وقت ولا زمن، سبِّح الله في كلِّ حين، لا تفتُر ولا تغفل؛ فإنك بالتسبيح تنتظم في حركة الكون المسبِّحة: سبحان الله.
- «التسبيح الكثير» ليس بالعدد فقط، ولكن بأن يبلغ المسلمون مقام التمكين والنصرة، فيسبّحون وهم أهل عزة وحكمة: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ... فَسَبِّحْ﴾.
- للقراءة: «**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**» لابن باديس.

قال الله تعالى:

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُومِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَآ أُولِي الاَبْصَارِ (2)

بذور المعنى

- ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله تعالى، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، الذي سبَّح له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾؛ هو لا غيرُه، هو وحده ﴿الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من يهود بني النضير، ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾: كانت مساكنهم حول المدينة، فأجلاهم

الرسول ﷺ إلى خيبر، وذلك بسبب نقضهم العهد.

- ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾: هذا الإخراج سُمي بالحشر الأوَّل، ثم كان الحشرُ الثاني حين أجلاهم سيدُنا عمر رضي الله عنه إلى الشام مِن خيبر، فأخرجهم من الجزيرة العربية. وسمي إجلاؤهم حشرًا؛ لأنه ﷺ جمعهم على صعيد واحدٍ، وحشرهم في مكان ضيق، ثم أخرجهم من منازلهم وديارهم.

- أخرج رسول الله ﷺ اليهود من المدينة؛ لأنهم تحالفوا مع المشركين في مكَّة على مُعاداة محمد ودعوتِه؛ فأرسلوا كعب بن الأشرف إلى مكَّة، وهُناك عند أستار الكعبة تعاهد مع مشركي قريش؛ والحالُ أنه كان بينهم وبين الرسول ﷺ ميثاقٌ وعهدٌ؛ ولقد أطلع الله تعالى رسوله بما دبَّر أعداؤه من كيدٍ.

- والذي بلغ بالعداوة إلى أوجِها أنهم حاولوا قتل النبيء محمد (اغتياله)، لـمَّا ذهب إليهم في أمر دية لرجلٍ قتل وهو من قبيلة كانت على عهد مع بني النضير؛ ودبَّروا له مكيدةً، بأن صعد بعضٌ منهم على سطح دارٍ، فأعدُّوا حجَرًا كبيرا ليلقوه عليه فيموت ويتخلَّصوا منه؛ ولكن الله تعالى أخبر رسوله بما يحضَّر خِفية، مما يدبَّر بليلٍ؛ فخرج رسول الله من حيِّهم، ولم يعد إليهم كما كانوا ينتظرون، وإلى المكان الذي كانوا يخططون، وقد

تواعدوا فيه معه.

- ثم أمر رسول الله محمدَ بن مسلمة أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، فقتله جزاء غدره؛ فكان ما كان من تآمر هؤلاء مع كفار مكة على رسول الله ﷺ.

- ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾: لم تكونوا تظنُّون أنَّ بالإمكان إخراج هؤلاء اليهود من المدينة؛ ذلك أنَّهم كانوا أهل مَنعة وقوَّة وعزَّة، ولهم العددُ والعُدَّة، هذا ظنُّ المؤمنين؛ أمَّا هؤلاء اليهود المغرورون فقال عنهم تعالى، كاشفا ما يختلج في صدورهم: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ﴾ حسبوا أنَّ حصونهم تمنعهم من الانهزام أمام حزب الله وجندِ رسول الله؛ وهم قد ﴿ظَنُّوا﴾ ولم يتيقنوا، لأنهم خبروا قوَّة محمد وجيشه في غزوة بدرٍ، وعرفوا كيف انتصروا في قلَّة على كثرةٍ، وكيف كان الله تعالى معهم في هذه الغزوة القريبة العهد.

- والتعبير بالجملة الاسمية عوض الفعلية ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ يفيد ثبات الصفة، أمَّا الجملة الفعلية فتفيد التجدد والحدوث.

- ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي أتاهم عذابُ الله وعقابه من الجهة التي لم يكونوا ينتظرون أن يأتيهم منها وذلك بأن ﴿قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وإذا

حلَّ الخوف أفئدةً، وإذا هجم الرعب على قلوب قومٍ؛ فإنَّ جميع الأعضاء تخور قِواها وتُصاب هي كذلك بالرعب والفزع؛ ومما زادهم رعبا وخوَرا قتل رئيسهم ومدبر المكائد فيهم: كعب بن الأشرف.

- ﴿أَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾: جرت مجرى الحكمة؛ ذلك أنَّ من لم يكن مرتكزا على أساس متين، ومن كان قائما على وهمٍ، خاضعا لغرور كاذبٍ؛ فإنه سيؤتى من الجهة التي لا ينتظر الهزيمة منها. ويهود بني النضير أتاهم الله من الهزيمة النفسية، فقذف الرعب في قلوبهم.
- ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُومِنِينَ﴾ أي هم سبب القرار بإخراجهم من بيوتهم، وتحطيم بيوتهم على يد المسلمين؛ أو أنهم حين علموا بالإجلاء واستسلموا له، كانوا يُخربون بيوتهم كي لا ينتفع بها المسلمون من بعد جلائهم. أو أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بنقضهم العهد، ولم يظلمهم الله ولا رسوله ولا المؤمنون.
- ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُومِنِينَ﴾ كذلك جرت مجرى الحكمة، كنايةً عمَّن يفسد أوضاعه، ويعبث باستقرار حياته وحياة أمَّته، ويفعل ما يكون سببا لخراب بيته بيده هو، وبيد عدوه. وأكثر ما يظهر

معنى الآية أوان الفتن الداخلية، بخاصة بين المسلمين؛ وعصرنا اليوم لا يعدِمها.

- ﴿فَاعْتَبِرُوا يَآ أُولِي الأَبْصَارِ﴾: أي خُذوا العبرة بهذه الحوادث، يا من له بصر وبصيرة، ويا من له قلب وعقل.

التشغيل والتفعيل

- هي حرب بين الله تعالى ويهود خيبر بمنطوق الآية: ﴿هُوَ الَّذِي﴾، ﴿مِّنَ اللهِ﴾، ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ﴾... ذلك أنَّ الله تعالى حقٌّ؛ فمن كان على الحقِّ كان الله معه، ودافَع عنه، ونصره: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ولم ينهزم المسلمون اليومَ أمام أعدائهم إلاَّ لأنهم نفروا عن الله ولم ينفروا إليه، فأعرضوا عنه وناصبوه العداء، فتركهم لقدَرِهم، وهُزموا وشُرّدوا؛ فلو عادوا إلى الحق لعاد النصر إليهم وعدًا من الله جَلَّجَلَالُهُ.
- يقول الدكتور فهمي النجار: «كلَّما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة والتشكيك فيها، والتوهين من عُراها، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقبة الجديدة، والحرب النفسية اليومَ، والتي يشنها هؤلاء الأعداء على الإسلام والمسلمين، تستخدم أرقى ما وصلت إليه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة؛ ومن

خلال هذه الوسائل تُشهِر الحرب النفسية أسلحتَها، من دعاية، وشائعة، وتحريف للأفكار، وتزييف للحقائق، وتشويه للأشخاص والجماعات».

من الفكر إلى الفعل

- مَن تعلق بالله وحده أمن مكر الله سبحانه، فلم يؤت من حيث لا يحتسب.
- «الحرب النفسية» من أوكد ما توجِّه الآية الكريمة إلى الاهتمام به في محاربة الأعداء؛ وهذا ما يجب أن يراقبه المسلمون أوان التخطيط للمعارك التي يخوضون غمارها ضد الكفر والظلم والطغيان.
- اليوم، وفي عصرنا: بالكلمة، والصورة، والإيحاء، والفعل... يحارب الكفار المسلمين حربا نفسية أورثتهم الضعف والذلة والهوان.
- فاعتبروا يا أولي الابصار: أمرٌ من الله تعالى أن يعتني المسلمون بعلوم التخطيط، والاستراتيجية، وقراءة التاريخ، ونفسية الشعوب... فهل استجبنا؟
- للقراءة: «**الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**» مالك بن نبي. و«**الحرب النفسية، أضواء إسلامية**» تأليف فهمي النجار.

قال الله تعالى:

وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿3﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَآقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿4﴾

بذور المعنى

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾: جزاءَ ما اقترفوا من إثم نقضِ العهدِ، وخيانةِ الميثاق، وتدبير قتل الرسول ﷺ؛ وهو أن يعذَّبوا كما فُعل بمن قَبلهم ممن قتل رسله؛ ولكنَّ الله تعالى رفع عنهم العذابَ الشديدَ، فكتب عليهم أن يُنقلوا من أرض إلى أرض، ويُجلوا في ذلٍّ ومهانةٍ، ويُخرَجوا من المدينة إلى خيبر، ثم من الحجاز إلى الشام وغيرها من أرض الله، فكان عذابهم جلاءً لا محقاً واستئصالا؛ ذلك أنَّ عذاب الاستئصال رُفع بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورفع عن

أمَّة سيدنا محمد ﷺ.

- أو أنَّ مصيرهم لم يكن مثل مصير بني قريظة، الذين قتلوا وعُذبوا في الدنيا، ولكن الحكم فيهم إجلاءً من المدينة، وإخراجا مثل مصير بني قينقاع.
- ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾: هذا حكم الدنيا، وقد خُفِّف عنهم؛ لعلَّ بعضًا منهم ولو كانوا قلَّة، يتوبون ويرعوون؛ أمَّا الآخَرون من غير هؤلاء، وممن ارتكب الإثم بإرادته وتدبيره؛ فعذابهم في الآخرة شديدٌ؛ إنه عذاب النار.
- وتحمل الآية سلوى لرسول الله ﷺ أنَّ هؤلاء حتى وإن أفلتوا من عذاب الدنيا، فلن يفلتوا من عذاب يوم القيامة: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾.
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾: والمشاقَّة مشتقة من الاسم وهو الشِقُّ، وهو كالمحادَّة مشتقة من الحدِّ؛ أي ما نزل بهم من عقاب وما سينزل بهم من بعدُ من عذابٍ، بسبب أنهم جعلوا أنفسهم في شَقٍّ والله ورسوله في شقٍّ، شأن من يدخل حربًا، ويكون في جهة والعدوُّ في جهة أخرى؛ ذلك أنهم خالفوا الحقَّ، وعصوا الرسلَ، وحاربوا الله ورسوله والذين آمنوا.
- ﴿وَمَنْ يُشَآقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: في شطر الآية

﴿شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وفي الشطر الثاني ﴿وَمَنْ يُشَآقِّ اللَّهَ﴾ ذلك أنَّ مَن عادى الرسول فقد عادى الله، ومن حاربه فقد حارب الله؛ ويؤخذ من ذلك أنَّ طاعة الرسول من طاعة الله، ومعصيته معصية لله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

- ثم إنَّ إسناد التعذيب إلى الله وحده، دون خلقٍ من خلقه - وهو أفضل الخلق ﷺ - أشدُّ هولاً من ذكره مع المخلوق، فهو من الله «شديدٌ أليم».

التشغيل والتفعيل

- لم يبق في الجزيرة العربية من يهود بني النضير إلاَّ ابن أبي الحقيق، وحُيي بن أخطب والد السيدة صفية أم المؤمنين؛ ولنا عبرةٌ في زواجه ﷺ من صفية حيث قتلَ زوجها كنانة يوم خيبر، وأُخذت هي مع الأسرى، فاصطفاها رسولُ الله لنفسه، وخيّرها بين الإسلام والبقاء على دينها قائلاً لها: «**اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتكِ لنفسي؛ وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك؟**» فقالت: «يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدَّقت بك قبل أن تدعوني... الله

ورسوله أحبُّ إليّ من العتق، وأن أرجع إلى قومي»؛ فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوّجها.

- في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ بالإظهار، وفي آية الحشر «وَمَنْ يُشَآقِّ» بالإدغام؛ وقد ناقشت مصادر التفسير الفرق بينهما، وعلَّلت ذلك بعدَّة تعليلات؛ قال ابن عاشور: «إنَّ الإدغام والإظهار من مثله جائزان في العربية». المسألة للبحث والتوسع..

من الفكر إلى الفعل

- من يشاق الله ورسوله، فقد أعلن الحرب على الله جَلَّجَلَالُهُ.
- الله تعالى يراعي المواثيق والعهود، وهو القادر على كل شيء؛ وينهى عن نقضها والاستهتار بها؛ فعلى المسلم أن يكون كذلك، ويتخلق بأخلاق الله..
- الأمر الشرعي الكلي: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ فكل عقد حكمه وجوب الوفاء، وكل نقض هو معصية، إلاَّ ما جاز لسببٍ مشروع، من مثل أن ينقض الآخر العهد ويغدر فيلقى جزاءه.
- لا تساهُل مع من نقض العهد، وخان الميثاق، فلو تساهل الله تعالى معهم لاستشرى التمردُ، ولضعف الإسلام وهو في مهده.
- للقراءة: «**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**» عبد الوهاب المسيري. و«**المستوطنات اليهودية، على عهد رسول الله** ﷺ» لأحمد علي المجدوب.

قال الله تعالى:

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ اَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿5﴾

بذور المعنى

- ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾: بعد إجلاء بني النضير، أمر الله تعالى رسولَه والمؤمنين أن يقطعوا بعض نخيلهم إغاظةً لهم، وإظهارا لقوَّة الإسلام وشَوكته؛ فأمر رسولُ الله ﷺ صحابته بذلك؛ فمنهم من قطع ومنهم من لم يقطع ﴿اَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾.
- ثم احتج اليهود، فقالوا: يا محمد، ألم تقل إنك نهيت عن الفساد؟ فنزلت الآية؛ وفيها أنَّ الأمر بالقطع نزل من الله تعالى، وهو العليم بالصلاح والفساد؛ وأنَّ إفساد بعض النخيل في مقابل إصلاح العقيدة وأمر

التوحيد، هو بإذن الله تعالى، وهو موافق لحكمه؛ إنه من تمام الصلاح: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

- اللينة: النخلة الليِّنة الصغيرة الكريمة، أو مطلقُ النخل؛ أو ذات الثمار الطيب؛ وعن سفيان الثوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الكريمة من النخل». وتمر اللينة يسمَّى اللَّوْن.
- ولقد سوَّى الله تعالى بين قطع النخل وعدم القطع؛ لأنَّ بعض الصحابة قطَعوا لأمر رسول الله ﷺ، والبعض الآخر لم يقطع ونواها لرسول الله ﷺ، وقد أعمل المصلحة، وراعى الأصلح؛ فمن قطع فبأمرٍ من الله تعالى، ومن أبقى فبأمرٍ من الله تعالى؛ ولكلٍّ أجره عند الله سبحانه؛ وهذا دليل مشروعية الاجتهاد والاختلاف، عند استفراغ الوسع.
- ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾: الحكمة من الأمر بالقطع إلحاقُ الخزي والذلَّة بالكفَّار الفاسقين، ذلك أنهم فسقوا عن أمر الله، وخرجوا من حكمه؛ فجازاهم بجنس ما فعلوا.

التشغيل والتفعيل

- حين أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نخيل بني النضير لم يحتجَّ الصحابة، ولم يسألوا: ما الفائدة من قطعها؟ وفي هذا دليل على أنَّ الشريعة لا يُشترط فيها التعليل،

وأنَّ الأمر الشرعيَّ يبطِل التعليل؛ والتعليل إذا ورد هو زيادة بيان وليس شرطا في قبول الحكم؛ والقانون العام أنَّ المصلحة في ذلك، سواء أدركها المسلم أم لم يدركها، ولا يأمر الله سبحانه ولا رسوله بما فيه فساد.

- وغالبًا ما يقع الإشكال في مساحة فهم العالِم لأمر الله ورسوله، وإصداره الحكم بحسب ما فهِم؛ لا في ذات الأمر الرباني والرسولي. للبحث والتوسع.
- يُستفاد من الآية مشروعية الاجتهاد، ذلك أنَّ من الصحابة من اجتهد فقطعَ النخل، ومنهم من اجتهد فلم يقطع؛ فأقرَّ الله تعالى فعل الفريقين؛ ثم يستفاد منه مراعاة المصلحة في الأوامر التشريعية، وأنها معتبرةٌ، ما لم يكن فيها مخالفة لأمر قطعي لمصلحة موهومة.
- قطع النخيل من قِبل المسلمين ليس حالة مزاجيةً، تنبع من الانفعال وإرادة الانتقام، بل هو صدور مما أمر الله تعالى به، وتحرٍّ لما يُرضيه ولا يُسخطُه سبحانه، وطلب لما فيه النفع لحركة الحياة، ولظهور الحق على الباطل، في الصراع الدائم بينهما.
- القوَّة والحزمُ في مواطنها، وبضوابطها وشروطها، ضرورةٌ لنُصرة الحق؛ ولا معنى للسِّلم السلبيِّ الذي يُذل الحقَّ وأهله؛ تحت مسمَّيات كثيرة في هذا العصر.

من الفكر إلى الفعل

- أمرُ الله تعالى هو معيار الصلاح والفساد، وليس تابعا لأمر غيرِه؛ والاستجابة لهذا الأمر سابقة على فهمه إذا تعذَّر الفهمُ؛ وليس شرطا أن يفهم الواحد الحكمة والعلة من أمر الله تعالى حتى يأتمر به.
- «الأمور بمقاصدها» من أعظم القواعد الفقهية؛ وأصلها حديث النبيء ﷺ: «**الأعمال بالنيات**».
- إعمال المصلحة، ومراعاة الأصلح؛ من أجلِّ ضوابط شريعتنا.
- «إتلاف بعض المال لإنقاذ باقيه، أو ما هو أعظم منه». مصلحة معتبرةٌ؛ وله في حياتنا اليومية أمثلة كثيرة، من مثل إتلاف أموال الباغي المحارِب للحفاظ على أصل المجتمع؛ أو إتلاف المال للجهاد لنصرة الحقِّ، وإظهار دين الله تعالى.
- حُرمة رسول الله وقدره عند الصحابة؛ كل ذلك يعلمنا أن نرتبط به ﷺ، ونتخذه قدوة وأسوة، ونحبَّه وننصره، ونتبع سنته ﷺ.
- للقراءة: «**منهج التعليل بالحكمة وأثره في التشريع الاسلامي: دراسة أصولية تحليلية**» رائد نصري.

قال الله تعالى:

وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿6﴾

بذور المعنى

- ﴿وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ طلبَ المسلمون تخميس أموال بني النضير، بعد جلائهم، كما كان الشأن مع غنائم بدرٍ؛ فنزلت الآية توضِّح الحكم، أنَّ ما كان من فيء له حكمُه، وما كان من غنيمة فله حكمُه؛ فالفيء جميعُه بيد رسول الله ﷺ، يصرفه على الأصناف التي ستذكر في الآية اللاحقة؛ وأمَّا الغنائم فخُمسه للرسول ﷺ يخرجه في نفس المصارف؛ أمَّا أربعة أخماسِ الغنيمة فهي للمقاتلين في سبيل الله.
- عرف الإمام جعفر الصادق الفيء بأنه: «ما كان من

أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل»؛ وهو «الراجع إلى المسلمين من مال الكفار بغير قتالٍ».

- يقال: فاء الشخص إذا رجع، وفاء الفيء إذا رجع نحو المشرق؛ أمَّا الغنيمة فهي: «ما أخذ من الكفار المحاربين قهرًا بالقتال» واشتقاقها من الغُنم، وهو الفائدة.

- ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾: أوجفَ الخيل والركاب أي أتعبها وحركها وحملها على الإسراع، وأوجف الدابَّة إذا حثها على الوجيف، والوجيف ضربٌ من السير سريع؛ والمعنى أنَّ ما حصل من الفيء لا مشقَّة لكم فيه، ولا حقَّ لكم منه؛ ولذا لم يعطِ رسول الله ﷺ الأنصارَ منه شيئا؛ وإنما أعطى الفقراء من المهاجرين.

- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: الله وحده هو الذي تكرَّم عليكم، وهزم أعداءكم، ومكَّنكم من ديارهم وأموالهم بعد أن أخرجهم منها؛ ليس لكم فضلٌ في شيء من ذلك؛ وهذا معنى نسبة النصر لله وحده في أول السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾. والله تعالى يسلط جنوده على من يشاء، ويهزم من يريد: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

- ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: الله تعالى لا يُعجزه أن يسلِّط رسله أو لا يسلِّط، أن يهزم أعداءه بجنود، أو بأمر آخر، أو بلا واسطة؛ فلا حاجة لله تعالى إلى خلقِه، ولا إلى سببٍ من الأسباب؛ وإنما هي وسائل سخرها، إن شاء أنفذ أمرها، وإن شاء لم ينفذ.

التشغيل والتفعيل

- قال الإمام الزهري: «فكانت بنو النضير للنبيء ﷺ خالصة لم يفتحوها عنوةً، بل على صُلح، فقسمها النبيء ﷺ بين المهاجرين، لم يعط الأنصار منها شيئًا، إلاَّ رجلين كانت بهما حاجة».
- ولقد ذهب الناس بالفيء والغنائم، وذهب الأنصار برسول الله ﷺ؛ فكان هذا تشريفا لهم إلى يوم الدين؛ أمَّا متاعُ الدنيا، والشاة والبعير، فهي إلى زوالٍ، ولا قدر لها ولا قيمة إلاَّ ما تحققه من منافع ظرفية؛ وهكذا علاقة المؤمن بالحياة، وبالمال، وبالإيمان، وبالقرآن، وبالرسول... لا يشتري الرخيص ويبيع الغالي.
- احتجاج الأنصار على منعهم من الفيء فيه بيان على «إنسانيتهم» وعلى أنَّ الإسلام لا يتعامل مع ملائكة، لا تتحرك قلوبهم في اتجاه الدنيا، ولا تبغي التملك؛

لكن، حين وضَّح لهم الله تعالى حكمه، وحين بيَّن لهم رسول الله ﷺ فضلهم؛ باعوا الذي هو أدنى، واشتروا الذي هو خير.

- في يوم حنين احتجَّ بعض الأنصار تقسيم الغنائم؛ فجمعهم رسول الله على صعيدٍ واحدٍ، وقال: «**يا معشر الأنصار، ما حديثٌ بلغني عنكم؟**» فسكتوا، فقال: «**يا معشر الأنصار، أترضوْن أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم؟**» قالوا: «بلى»، قال: «**لو سلك الناس واديا، وسلكت الأنصارُ شعبا، لأخذت شعب الأنصار**».

من الفكر إلى الفعل

- العلاقة بين الغزوة والغنيمة، فيها أكثر من دليل على أن الإسلام ليس نصرانية، ولا يهودية؛ فهو ليس دينا روحيا فقط، ولا ماديا فقط؛ هو كل ذلك؛ في نظام وتوازن وحكمة.
- إنما النصر من الله، والهزيمة من الله؛ والمسلم مأمور باتخاذ أسباب النصر، ولا يجوز له أن يتقاعس فيطلب النصر؛ وإن فعل عاقبه الله سبحانه بما أراد ليعتبر.
- كل غنيمة سوى الإيمان، والرسول، والحق؛ هي إلى زوال.
- جاز الاحتجاجُ وطلب الدليل، مع نية إدراك الحق، لا تعنتا ومراء واستكبارا.
- للقراءة: «**البداية والنهاية**» لابن كثير؛ «**حماية المال العام في الفقه الإسلامي**» لنذير أوهاب.

قال الله تعالى:

مَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنَ اَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةَم بَيْنَ الاَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)

بذور المعنى

- ﴿مَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنَ اَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ هو بيانٌ لمَصرف الفيءِ، سواءً في ذلك فيءُ بني النضير أو أيِّ فيءٍ آخرَ بعد ذلك من قُرى الكفَّار التي تُفتح بدون حربٍ وقتالٍ؛ وقد يعمُّ ما أفاء الجزيةَ والخراج كذلك.
- ﴿فَلِلهِ وَلِلرَّسُولِ﴾: قيل هما سهمٌ واحدٌ؛ لأننا لو عدَدْناهما سهمين: «سهمٌ لله»، «وسهمٌ لرسوله» فسيكون لدينا

ستة أصناف لا خمسة؛ يقول القطب اطفيش: «سهمُ الله والرسول واحدٌ هو للرسول، وإنما ذكر الله تعالى تيمُّنا وتبرُّكا وتعظيما لشأنه ﷺ».

- سهم الرسول ﷺ يُنفق به على نفسه وعلى عياله؛ ويدَّخر منه نفقةَ عامٍ لأزواجه؛ وبعد وفاته ﷺ قال البعض: سقط هذا السهم، وقال آخرون: إنما هو لخليفة المسلمين؛ لعلَّة الخلافة. وأصل الخلاف: هل استحقَّه رسول الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأنه رسول، أو لأنه خليفة؟ فمن أخذ بالرأي الأول أسقطه، ومن أخذ بالثاني أبقاه.
- ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾: أي قرابته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب؛ قال ﷺ: «**نحن وبنو عبد المطلب شيءٌ واحدٌ**» وشبَّك بين أصابعه.
- ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: مطلق يتامى المسلمين؛ بمن فيهم الأغنياء؛ ودخل ولدُ الزنى في الحكم؛ لئلا يضيع؛ وأخرج بعضٌ اللقيطَ، ولا دليل على إخراجه؛ فإنَّ الإنفاق عليه واجبٌ على المسلمين؛ وعدم علمنا بأبيه لا يطعمه ولا يَسقيه؛ بل، يدخل في النصيب يتامى أهل الذمَّة المعاهِدين؛ لسعة الإسلام، وتليينا لقلوبهم؛ وحتى لا ينفروا من الإسلام إلى غيره.
- ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: سهمٌ آخر؛ وهم الفقراء سواء أكانوا صغارا أم كبارا، ذكورا أم إناثا.

- وفي حديث متفق عليه عرَّف رسول الله ﷺ المسكين فقال: «**ليس المسكينُ الذي يطوف على الناس تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان؛ ولكنَّ المسكين الذي لا يجد غنًى يُغنيه، ولا يُفطَن به فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس**» وفي الآية القرآنية من سورة البقرة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.
- ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: هو من انقطع عن أهله وبلده ومصدر رزقه؛ ولا اعتبار لحاله قبل الانقطاع. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحلُّ الصدقة لغني إلاَّ في سبيل الله، وابن السبيل، أو جارٍ فقير فيهدي لك أو يدعوك**».
- ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةَم بَيْنَ الأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾: حتى لا يكون المال متداولا ومقتصِرا بين الأغنياء دون الفقراء، ينتقل من غنيٍّ إلى غنيٍّ ويحرم منه الفقراء، كما هو الشأن في النظام الرأسمالي الليبرالي غالبًا، أو حتى في النظام الشيوعيِّ الاشتراكيِّ؛ إذ الثروة محصورة في عددٍ قليل من الناس، وباقي العالم يتجرَّع ويلات الفاقة والفقر.
- وفي حركة المال تعتبر قاعدة ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةَم بَيْنَ الأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ من أعظم القواعد الكلية، التي تحكم

سيولة المال، وانتقاله بين الناس، وتفتيته لئلا يتجمَّع في جهة على حساب جهات أخرى.

- ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾: الآية خاصَّة في الفيء، وعامَّة لكلِّ ما أمر به رسول الله ﷺ، ولكلِّ ما نهى عنه. وهو ردٌّ على من قصَر أحكام الدين على القرآن الكريم، وفصل بين القرآن والسنة، ولم يعتبر السنَّة بيانا وتفصيلا للقرآن.

- في الحديث الشريف، من جوامع الكلم، قال رسول الله ﷺ: «**من عمِل عملا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»، وفي حديث آخر قال ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثلَه معه، ألا يوشِك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**».

- ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: اتقوا الله في أوامر دينكم كلِّها، وفيما أتاكم الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ وما نهاكم عنه؛ ومن خالف ما جاء به رسول الله ﷺ فإنَّ الله شديدُ العقابِ، وجزاؤه عند الله عذابٌ شديدٌ، وخزيٌ عظيمٌ. ومن أنكر سنة المصطفى فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة، وحكمه أنه كافرٌ غير مؤمنٍ.

التشغيل والتفعيل

- لا يوصف رسول الله ﷺ بأنه فقيرٌ؛ لأنَّ الفقير من يتعرَّض للمال ولا يَحصل عليه. ولا يسمَّى زاهدا؛ لأنَّ الزهد إعراض عن الدنيا بعد توجُّه إليها؛ والرسول فيما ملَّكه الله تعالى لا يتعرض للحالين. ويوصف ﷺ بالورع وعفَّة النفس وعلوِّ الهمَّة.
- كان الإمام علي رضي الله عنه يقسِّم ما ببيت مال المسلمين كلَّ يوم جمعةٍ، حتى لا يترك فيه شيئا، وأمر به فكُنس ثم صلى فيه رجاء أن يشهدَ له يوم القيامة.
- يقول الإمام الشافعي: «ما كان نصٌّ كتاب بيّن، أو سنة مُجتمَع عليها فالعذر مقطوع، ولا يسع الشكُّ في واحدٍ منهما، ومن امتنع من قبوله استُتيب»..

من الفكر إلى الفعل

- لا يُسأل اللهُ سبحانه الفقرَ، ولكن يسأل غنى من حلال غير مطغ ولا مُلْه: «واسألوا الله من فضله» وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من الفقر والفاقة والذلة، ومن الدَّين، ومن الحاجة إلى الناس.
- «لو كان الفقرُ رجلا لقتلته» موقف، ينسب لسيدنا علي، أو عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وهو خط واضح لكل من يتولى أمر المسلمين، وللمجتمع المسلم كله.
- «كي لا يكون دولة بين الاغنياء» قاعدة كلية تحكم حركية المال في الإسلام؛ وجب تفعيلها في الاقتصاد الكلي والجزئي.
- «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ».
- للقراءة: «**السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**» محمد الغزالي. و«**فقه الزكاة**» ليوسف القرضاوي.

قال الله تعالى:

لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿8﴾

بذور المعنى

﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾: هؤلاء هم خميرة الإسلام الأولى، وصفاتهم دالَّة على أنهم وإن عانوا الكثير من حيث الإخراجُ من الديار والأموال، والفتنةُ في الدين وفي الأهل؛ إلاَّ أنهم كانوا راسخين في إيمانهم، صادقين في نصرتهم لله ورسوله، أولئك الذي آمنوا ولما يروا علامات التمكين والظهور؛ فلم يكن إيمانهم لمالٍ ولا لجاهٍ؛ واليوم إن أعطاهم الرسول ﷺ من الفيء، فإنَّ ذلك ليس أجرةً، وليس محاباة، ولكنه الاعتراف بفضلهم على مَن سواهم، وسيبقى هذا الفضل قائما

إلى يوم الدين.

- إن كان ثمة من حقٍّ ماديٍّ أو اعترافٍ معنوي فالأولوية فيه للمهاجرين، والفيءُ عنوانٌ على غيره من الحقوق؛ ومن صفات هؤلاء أنهم: فقراء، وأنهم ﴿أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾؛ وأنهم مع ذلك لم يبدِّلوا دينهم، ونصروا الله ورسوله في أحلك الظروف، وصدَّقوا وصدَقوا.
- ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ﴾: هؤلاء المهاجرون يصفهم الإمام الطبري بقوله: «هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر؛ خرجوا حبًا لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما فيه من الشدّة؛ حتى لقد ذكر لنا أنَّ الرجل كان يعصِب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ماله دثار غيرها».
- ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾: في خروجهم من ديارهم وفي جميع أمرهم لا يبتغون رزقا إلا من الله وحده، ويبتغون من الله في دنياهم «فضلا» أي رزقًا، ولآخرتهم «رضوانا»؛ فهم المتوكلون على الله حقًّا. ونسبة ابتغائهم فضلا ورضوانا «مِّنَ اللهِ» فيه دلالة على توكلهم عليه حقَّ التوكُّل، وأنَّ الفيء هو حقهم من الله وليس من العباد، وفي الصيغة تفخيم وتعظيم لشأنهم

ومقامهم.

- ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ﴾: في خروجهم من مكة نصرةٌ لله ولرسوله، وهم إنما خرجوا بأمر من الله ورسوله ﷺ؛ وليس في ذلك غرضٌ آخر، ولا هدفٌ دنيوي خارج النصرة.
- ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أولئك في علوِّ مرتبتهم هم الكاملون في الصدق، فقد صدقوا الله، وصدقوا رسوله، وصدقوا أنفسهم، وصدقوا المؤمنين إلى يوم الدين.

التشغيل والتفعيل

- الدليل على أنَّ ابتغاء الفضل معناه سؤال الرزق من الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾. غير أنَّ بعض المفسرين قالوا: «الفضل في هذه الآية لا يعني الرزق، فهم إنما خرجوا لله فقط». والحق أنَّ طلبهم الرزق والفضلَ إنما هو من الله لا مِن غيره، وهذا الطلب هجرةٌ ولا نقص فيها؛ فلا تعارض.
- طلبُ الرزق والمال الحلالِ لا ينافي طلب رضوان الله

تعالى: فـ«الأجرة لا تنفي الأجر»، و«الغنيمة لا تنفي ثواب الجهاد»، و«الفيء للمهاجرين لا يلغي رضا الله عنهم»؛ و«النية هي المحدِّد لحقيقة العمل الصالح»، أهو لله أم لغيره؟

- ما أجمِل في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنَ اَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ فصّل في سورة الحشر، من خلال هذه الآية، فالمهاجرون أنفقوا قبل الفتح، والأنصار أنفقوا بعدَ الفتح؛ وهل في تقديم الإنفاق على القتال تفضيل في الأجر والرتبة؟ لا نستعجل الجواب، ونترك السؤال للبحث.

- اللام في ﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ كانت محلَّ اختلاف كبيرٍ بين المفسرين والفقهاء؛ لأنَّ تفسيرها يستتبع أحكاما في الفيء على حسب المعنى؛ فمنهم من جعلها بدل بعضٍ من كلٍّ، أي لمن ذكِر من قبل لكن شريطة أن يكون من الفقراء؛ ومنهم من جعل جملة ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ ابتدائية بحذف المبتدأ، فتكون ما بعدها مصارف أخرى غير التي ذكرت من قبل؛ أي ولكن الفيء للفقراء..

من الفكر إلى الفعل

- الصدق يظهر في التفسير العملي لكلمة الشهادة؛ والإيمان في القلب تصدقه الجوارح أو تكذبه؛ ولا فصل بينهما.
- المهاجرون الأولون من المسلمين آمنوا قبل الفتح، وهاجروا، وجاهدوا؛ ولم يقايضوا إيمانهم بمال أو متاع: صدقوا الله ورسوله. ولهم فضل على جميع من آمن إلى يوم القيامة.
- «الأجر لا يمنع الأجرة» قاعدة كلية في المعاملات، والاعتبار بالنية.
- حبُّ صحابة رسول الله ﷺ من علامات الصدق والإيمان، وبغضهم من علامات الشقاء والحرمان؛ ولينظر كلُّ واحد ما في قلبه حيالهم؛ ولا داعي للجدل حول فتنة الصحابة، إلاّ ما يستنبط منها من عبرٍ؛ ولا يجوز القطع بالتخطئة لأحدهم ذلك أنَّ الوارد في حقهم أخبار ظنيةٌ لا قطيةٌ.
- «الغنيمة لا تنفي ثواب الجهاد» قاعدة أخرى في مال الفيء.
- للقراءة: «**فضل الصحابة والرضا عنهم**» لبيوض إبراهيم. و«**القتال في الإسلام دراسة مقارنة**» محمد الجعواني.

قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿9﴾

بذور المعنى

- ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: تبوَّأ المكانَ وبالمكان إذا نزلَه واستوطنه وأقام به؛ والدار هي المدينة المنورة يثرب؛ وهؤلاء الذين سكنوها من قبل هم الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا﴾.
- وسكنى المدينة على الحقيقة، أمَّا كونهم سكنوا الإيمان واستوطنوه، «تبوَّؤوا الإيمان» فهو على المجاز، وهو دليل على أنَّ دار المؤمن هي إيمانُه، وسكناه حيث يقيم دينَه كما أمر الله تعالى؛ فـ«حيث تم الإيمان وجب

السكن، وحيث استحال وجبت الهجرة».

- ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾: فهم يحبون المهاجرين، الذين وصفهم الله تعالى من قبلُ، بأنهم ﴿أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ...﴾، ودليلُ حبهم لهم أنهم أكرموهم بالسكن، والمعاش، والزوج، وحسن الضيافة، والكرم؛ ولم يكن ذلك إلاَّ عن طيب خاطر، ورضا نفسٍ.
- ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾: هذه شهادة من الله تعالى وإخبار بغيبٍ هو من «خوالج النفوس والمواجد»؛ فذلك لا يُعلم عادة، وإنما يصفُه صاحبُه، أو يُستنتج من أقواله وأفعاله؛ وأمَّا أن يكشفه الله تعالى، فيعرِفه القاصي والداني، الأولون والآخرون، فهذا من تمام حبِّ الله تعالى لهؤلاء، وهو دليل على القبول.
- الأنصار لا يجدون ما يجده الإنسان من ضيق وحسد وحزازة بسبب ما أوتي المهاجرون من فيءٍ؛ فحتى احتجاجهم ولقاؤهم بعد ذلك بالرسول ﷺ كان للتبين والتثبت لا حسدًا وضغينةً، وإن تحرك في صدرهم شيء من الغيرة لأنهم بشرٌ إلاَّ أنهم لم يحقِّقوا ذلك بالقول، ولم يصدقوه بالعمل. وإلا فإنهم قد سبقوا في الإحسان، وقاسموهم ديارهم وأموالهم، فكيف يحرمونهم متاعا من الدنيا قليلا؟

- ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: الإيثار أرقى مقاما من الجُود؛ ذلك أنَّ الجود أن تعطي مما عندك، وأمَّا الإيثار فأن تعطي كلَّ ما عندك وتحرم نفسك منه؛ والأنصار كانوا يحرمون أنفسهم من مال ورزق ومتاع يؤثرون به المهاجرين، طلبا لما عند الله. ويكون ذلك منهم لا غنى في كلِّ الحالات، ولكن ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: والخصاصة هو الفقر الشديد؛ أي ولو كانوا على فقرٍ كبير بحيث لا يملكون بياتًا إلا خصاصةً.

- ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: والذي يجعل بينه وبين نفسه وقاية، فيمنعها من الشح، ويربيها على العطاء والسخاء؛ لتتفتح على الخير، وتشمئز من الشر؛ فتكون نفسا طيبة زكية طاهرة؛ والذي يفعل ذلك فهو المفلح لا غيره، ونفسه تكون مطمئنة ويقال لها: ﴿يَآ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. وأضاف الله تعالى الشحَّ للنفس لأنه غريزة فيها، ومقاومته تربيةٌ ورياضة وإيمان.

- البخل والشحُّ: البخل أن يبخل الإنسان عن الآخرين، ويمسك ماله عن العطاء؛ ولكنه يكرم نفسه وينفق عليها؛ أمَّا الشحُّ فهو البخلُ عن النفس وعن الآخرين

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

التشغيل والتفعيل

- «كما أنَّ الدار سكن للقالِب، فالإيمان سكنٌ للقلب، يرجع إليه في كل قضاياه ومواقفه ويلتزمه ويرضى به حَكَما ومنظِّما لحركة الحياة».
- «العطاء يوحِّد ويجمِّع، أمَّا الأخذ فيفرِّق ويشتت»، ولذا كان السخاء من أسباب وحدة الأمة، وكان الشح وحبُّ الذات من مُهلكات الأمة، ومن أسباب الفُرقة والصراع.
- ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ من القواعد الكلية التي لا تقتصر على جانب المال فقط، ولكن تتعداه إلى كلِّ مسارات الحياة، وإلى كل ما فيه شحٌّ مطاع: العلم، والشرف، والمال، والسلطة... الخ.
- لا معنى للبحث في أيهما أفضل: المهاجرون أم الأنصار؛ ذلك أنَّ الفضل موزَّع بينهم، فهؤلاء هم الأفضل في كذا، وأولئك في كذا؛ ولا بد في سبُل الخير من اعتبار النسبية والنسبة؛ وإلا فمثل هذه المباحث مضيَعة للوقت، ولا فائدة ترجى منها.

في سبب نزول ﴿وَيُؤثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلًا أتى النبيء ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معَنا إلَّا الماء؛ فقال رسول الله ﷺ: مَن يضمُّ (يضيف) هذا؟ فقال رجلٌ مِن الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني. فقال: هيِّئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها؛ ثمَّ قامت كأنَّها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُريانه أنَّهما يأكلان، فباتا طاويين (جائعيْن)، فلمَّا أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله اللَّيلة (عجب) مِن فعالِكما، فأنزل الله: ﴿وَيُؤثِرُونَ...﴾ الآية..

من الفكر إلى الفعل

- الذين تبوؤوا الإيمان: هم الذين سكنوا في مواقعه الفكرية والروحية والعملية، واطمأنوا إليه، وتفيؤوا ظلاله، ولم يبغوا عنه بديلا. وفي كل عصر ثمة من يوصف بهذا المعنى، وثمة من يهجر الإيمان وأهله، ويتنكر لأسسه وأصوله. ولينظر كل مسلم أيَّ السبل يسلك؟
- «**بادروا بالأعمال سبعًا، هل تنتظرون إلا فقراً مُنسيًا، أو غنًى مُطغيًا، أو مرضاً مُفسدًا، أو هَرَماً مُفنِّدًا، أو موتاً مُجهِزًا، أو الدجال، فشر غائب يُنتظر، أو الساعة، والساعة أدهى وأمر؟**» حديث عظيم، يربي النفس على السخاء والعطاء.
- في الحديث الشريف: «**آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغضُ الأنصار**».
- «العطاء يوحد والأخذ يفرق» بناء على هذه القاعدة تنتظم أمور الأمم والمجتمعات.
- للقراءة: «**رجال حول الرسول**» خالد محمد خالد؛ و«**النور الخالد**» فتح الله كولن..

قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ جَآءُوا مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ 10

بذور المعنى

- ﴿وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: هم الصحابة الذين جاءوا إلى الإيمان والتحقوا بصفِّ رسول الله ﷺ بعد المهاجرين والأنصار الذين شهِدوا الفتح؛ أو هم التابعون؛ أو هم المسلمون إلى يوم القيامة، فهم في المرتبة الموالية بعد المهاجرين والأنصار.
- ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾: يدعون الله تعالى أن يغفر لهم وأن يغفر لمن قبْلهم من المهاجرين والأنصار، السابقين بالإيمان؛ ذلك أنَّ لهم فضلاً على من لحقهم، فوجب أن يقابَل بالدعاء

والإحسان. ولا يكتمل الدعاء إلاَّ إذا كان قلبيًّا، ولفظيًّا، وعمليًّا؛ ولو كان مجرد كلمات وألفاظ غير محققة في الواقع، فهي «مجرد قول» لا يُلتفت إليه.

- ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: دعاءٌ آخر أن لا يكون في قلوبنا حقدٌ وضغينةٌ وحسدٌ للذين آمنوا؛ سواءً في ذلك السابقون من المهاجرين والأنصار، أو الذين آمنوا ممن نعاشر ونعرف في حياتنا اليومية، أو جميع من يكون على الإيمان إلى يوم القيامة.

- لا ريب أنَّ الخوض في الفتنة الكبرى التي كانت بين الصحابة، والحكم لبعضهم على بعضهم، وولاية بعضهم والبراءة من بعض؛ كلُّ ذلك مخالفٌ لفحوى هذه الآيات؛ والدعاءُ لهم بالمغفرة، ثم الدعاء أن نطهر الله قلوبنا فلا نحقد على المؤمنين؛ كل ذلك مانعٌ من الادعاء والخوض في أعراضهم بما لا نعلم، والقول عنهم بما لا يليقُ؛ بخاصة أنَّ ما ورد عنهم في مصادر التاريخ متضاربٌ، لم يؤسَّس على يقين، و«التوحيد لا يبنى إلاَّ على يقين».

- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: الرؤوف والرحيم من أسماء الله الحسنى؛ الرأفة هي الشفقة قبل وقوع الفعل من قِبل المرؤوف به؛ والرحمة هي العفو والصفح قبل وبعد وقوع الفعل. ومن ثم فإن الرحمة أعمُّ من الرأفة؛

خلاف ما ذكَر البعض أنَّ الرأفة أشدُّ من الرحمة.

التشغيل والتفعيل

- المؤمن منفتحٌ على الزمن في خطه الممتد من الماضي إلى المستقبل عبر الحاضر؛ فهو يقف على «شريحة الزمن الذهبية» والتي يمارس فيها إرادته وفعله، ولكنه يستمد جذوره من الماضي، ويسافر بأهدافه ورسالته وتخطيطه بعيدا نحو المستقبل بشقيه الدنيوي والأخروي. وهو يرفض كلَّ معنى «للوجودية» التي لا تعترف إلاَّ بالوجود الإنساني مستقلا عن الله، وعن أي امتداد خارج دائرة الإنسان الحر.
- قال رسول الله ﷺ: «**اللهَ الله في أصحابي، اللهَ الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي؛ فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم؛ ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللهَ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه**». الحديث يحرِّم الخوض في الفتنة التي بين الصحابة، ويمنع من اتخاذهم موضوعًا وغرضًا، أو سلَّما لبلوغ نوايا مخفيَّة. وفي الآية والحديث وجوب حبِّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
- عن الإمام مالك: «من كان له في أحد من الصحابة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قولٌ سيءٌ أو بغضٌ، فلا حظَّ له في الفيء».
قال القطب اطفيش: «وليس من الشتم القولُ بأنَّ الحقَّ مع فلان الصحابي، أو فلانٌ الصحابي يستحقُّ أن لا يقول كذا أو يفعل كذا...» أي ذكرُ الصواب والخطأ، والترجيح بين الأقوال والآراء التي اختلفوا فيها؛ فذلك مؤسِّس للعلم وللفقه، لا حرج فيه ولا حجر.

- استدلَّ الشهيد البوطي عن عدم قسمة عمر لسواد العراق على الفاتحين (أي العقار) بآية ﴿وَالَّذِينَ جَآءُوا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ حيث ذكر أنه «إذا قسِمت الأرض فمن للذين يجيئون في المستقبل من المسلمين؟ فحمل الآية على عمومِ الخلَف من المؤمنين».

من الفكر إلى الفعل

- من لا شفقة له ولا حبَّ لجملة المسلمين فليس له نصيب من الدين.
- إذا كان الله تعالى رؤوفا بعباده رحيما، فما بال الناس فيما بينهم لا يعفون ولا يغفرون: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾؟
- وصِف رسول الله ﷺ بهذه الصفة ﴿بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهي غالبا صفة لله تعالى؛ وهذا تشريفا له، وبيانا أنه تخلَّق بأخلاق الله، وتربى على عين الله.
- الذين يفتحون ملفات من التاريخ، بخاصة تاريخ الصحابة رضي الله عنهم، بالتشكيك، والخوض؛ إنما يؤخرون مسيرة الأمة حضاريا، وقد اقترفوا إثما مبينا.
- للقراءة: «**تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**» محمد الغزالي.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنُ اخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمُ أَحَدًا اَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿11﴾ لَئِنُ اخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الاَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴿12﴾

بذور المعنى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾: الخطاب لسيدنا محمد ﷺ، والذين نافقوا هم رهطٌ من بني عوفٍ، منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، وعبد الله بن الكتع، ورافع بن زيد؛ أرسَلوا إلى المشركين يحالفونهم؛ وسمَّاهم إخوةً ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾؛ والمراد بالأخوَّة أنهم حزب واحدٌ، وهو حزب الكفر

ضدَّ حزبِ الإيمان، فهم إخوةٌ في الكفر والنفاق. والخطاب بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يدلُّ أنَّ إخبار الله تعالى له أوثق من الرؤية بالعين، أي «ألم تعلم».

- انتهز المنافقون الفرصةَ، وأرسلوا إلى يهود بني النضير، وقالوا لهم: لا تخرجوا من المدينة، ثم قالوا: ﴿لَئِنْ اخْرِجْتُمْ﴾ منها ومما حولها ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ نُصرةً منا ووقوفا إلى صفكم.
- ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾: مَن أمرنا بالقتال، والمعنيُّ هو محمد ﷺ، إذا أمرنا أن نقاتلكم لن نفعل مؤكَّدا، ولا نطيعه في ذلك أبدًا. وقد وكَّدوا ذلك بجملة من التأكيدات إمعانًا في الغِل والحقد لدين الإسلام، وإمعانًا في الكذب على أنفسهم وعلى إخوانهم الكفَّار.
- ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾: وإن قاتلكم محمد وجندُه، سنقف إلى جواركم، ونقاتل معكم ضدَّهم.
- ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: شهادة الله سبحانه علمٌ محقَّق، وهؤلاء المنافقون كذبُهم يجري منهم مجرى الدم، ولذلك ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ وكما أكَّدوا كذبهم بجملة مؤكِّدات، أكَّد الله كونهم كاذبين بـ«إنَّ» و«اللام المزحلقة» المفيدة للتوكيد.
- ﴿لَئِنْ اخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ فإذا أخرجتم اليهودَ،

فإنهم لن يخرجوا معهم للقتال، بل إنهم خدعوهم بوعدهم هذا، ومن صفات المنافقين الخداع والكذب؛ ولقد دلَّت أحداث السيرة بعد ذلك صدق الآية فيهم.

- ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ فإذا قاتلتَهم يا رسول الله ويا أيها المؤمنون، فإنهم لن يقفوا إلى صفهم، ولن يقاتلوا معهم، خوفًا وجبنًا؛ وقد ينصر الكافر الكافرَ، لكنَّ المنافقَ مذبذب لا يقف إلاَّ إلى جهة المنتصر: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.
- ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾: وعلى كلٍّ، على افتراض أنهم سيقاتِلون معهم وينصرونهم - ولنُسلِّم بذلك جدلاً، ذلك أنه لن يقعَ - فإنهم سيُضعِفون صفَّهم، وسيتولَّون الدبرَ في أوَّل بادرة للانهزام؛ فهم لن يزيدوهم إلاَّ ضُعفا.
- ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: والله تعالى لن ينصرهم في جميع الحالات، ولن ينصرهم في جميع الأزمان والأوقات؛ ولقد ثبت عبر التاريخ أنَّ المنافقين منهزمون دائمًا، حتى في مواجهة الكفَّار ينهزمون، إن حدث وأن واجهوهم؛ ولا تقوم لهم قائمة من منعَةٍ أو تمكُّن أو قوَّة؛ ذلك أنهم مهزوزون مخادعون.

التشغيل والتفعيل

- تُقرر الآية قاعدة وهي «أنَّ المنافقين لا يثبتون في معركة قطُّ»، وهم دوما منهزمون، وفي الصفِّ الذي يكونون فيه يضعفونه؛ ولا ريب أنَّ انهزام كثيرٍ من البلاد الإسلامية في القرون الأخيرة أمام أعدائهم من بلادٍ غير مسلمة، مرده إلى أنَّ النفاق مستشرٍ فيهم، وأنَّ الإيمان لم يكتمل، ولذا لم يكونوا أهلا أن ينصرهم الله على أعدائهم كما وعدهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَّنصُرُهُۥٓ﴾.
- «إذا طالت معركة بين فريقين، فاعلم أنَّ الحقَّ ليس مع أيٍّ منهما» ذلك أنَّ الحقَّ غالب للباطل لا محالة، لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾..

من الفكر إلى الفعل

- لا يؤتمن المنافقون، ولا يؤمن جانبهم؛ فهم قُلَّب مذبذبون؛ وليحذر المسلمون فرادى ومجتمعين من موالاتهم، ومن الوقوف إلى صفهم.
- ينبغي الاعتبار بحال المنافقين في عهد رسول الله ﷺ لفهم الكثير مما يعانيه المسلمون اليومَ؛ ولنا فيما ذكر القرآن الكريم عنهم عبرة وذكرى.
- لا يُسأل أحدٌ النصر إلا الله وحده، وذلك في جميع جبهات الحياة، لا في القتال وحده؛ وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: **يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك؛ إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله؛ واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك؛ رفعت الأقلام وجفت الصحف**».
- للقراءة: «**آداب النفوس**» للحارث المحاسبي. «**جند الله تخطيطًا**» لسعيد حوى.

قال الله تعالى:

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿13﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿14﴾

بذور المعنى

- ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ﴾: مهما ادَّعى الكفَّار، ومهما تبجَّح المنافقون؛ إلاَّ أنهم يخافون المسلمين ويرهبونهم أكثر مما يخافون الله ويخشونه؛ وطبيعتهم أنهم يؤمنون بعدوٍّ محسوس ظاهرٍ، ولا يؤمنون بعدوٍّ قويٍّ غير ظاهرٍ.
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾: وإنما يرهبونكم ويخافونكم أكثر من رهبتهم وخوفهم اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم لا يفقهون عظمة الله سبحانه، ولا يقدِرونه حقَّ قدره،

فاختلطت في منطقهم الموازين؛ ولو فقِهوا لعلموا أنَّ النفع والضرَّ من الله وحده ﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُّرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾.

- ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾: إذا قاتلكم هؤلاء اليهودُ، فإنهم لخوفهم منكم، لا يبرُزون لكم وجهًا لوجهٍ، ولكنَّهم يحتمون بحصونهم، وقد فضحهم الله في أوَّل السورة فكشف للرسول ﷺ ما يدور في قلوبهم من الظنِّ، فقال: ﴿وَظَنُّوٓا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ﴾.

- ﴿أَوْ مِنْ وَّرَآءِ جُدُرٍ﴾: يكون التحصين بطرق شتى، منها بحفر الخندق، أو بالشوك، أو بإضرام النار؛ ومن ذلك الاختفاء وراء الحيطان والجدران العالية.

- ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾: والحال أنهم إذا تحاربوا فإنَّ بأسهم شديدٌ بينهم، ويبرُزون لبعضهم البعض، فَيُمعنون في القتل؛ ولقد حذَّر الله تعالى المسلمين إذا انحرفوا عن الصراط المستقيم فسينالهم ما نال اليهود، وسيتقاتلون بشدَّة، في سورة الأنعام قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَّبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

- ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾: إنما اجتماع هؤلاء في العداء لكم اجتماعٌ لمصلحة ظرفيةٍ، هي زائلةٌ لا محالةَ؛ ذلك أنك تحسبهم مجتمعين متوحِّدين؛ إلاَّ أنَّ قلوبهم متفرقَة، ولا أُلفة بينهم؛ يكيد بعضهم لبعضٍ، وإذا وجد فريقٌ فرصة للنيل من فريق آخر لم يفوِّتها.
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾: هم لا يعقلون ما به ينتصرون ويقوون؛ ذلك أنَّ اختلاف القلوب، والفُرقة، والبأس الشديد بينهم، كلُّ هذا مؤذن بانهزامهم لو عقلوا.

التشغيل والتفعيل

- وصف الله تعالى المؤمنين بعكس ما وصف به المنافقين، فقال عنهم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾(سورة الأحزاب)؛ وقال في سياق آخر: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(سورة آل عمران).
- الفرق بين ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ في الآية الأولى، و﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾ في الآية الثانية؛ أنَّ لا يفقهون تكون فيما يفوق تدبير

العقل المجرَّد، وفيما هو أعظمُ من ذلك؛ وكون الله تعالى هو الذي ينبغي أن يُخاف أكثر من المسلمين هو أمرٌ عقديٌّ لا يفقهه هؤلاء؛ أمَّا في الثانية فالحديث عن تدابير الحرب، بمقدماتها وشروطها، سواء أكانت مع المسلمين أو غيرهم، ولذا فهي محل تعقُّل ونظر، فهم لذلك ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

- قال تعالى عن المؤمنين الذين هم على الإيمان الحقِّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا...﴾ فهل المسلمون اليوم يتَّصفون بهذه الصفات، التي تستوجب النصر وعدًا من الله تعالى؟ أم أنَّ فريقا منهم، وهم المتحكِّمون، متَّصفون بصفاتٍ جامعةٍ بين صفات المنافقين وصفات اليهود؟
- إنَّ واقع اليهود المعقَّد، وحال الجبن والفرقة والتنازع، ليس مقصورا عليهم بالتعيين؛ وإنما يصدق على كلِّ جماعة أو مجموعة أخرى تعيش ذات الأمراض النفسية والتنظيمية، وتخضع لنفس الظروف والمواقع. ولعلَّ المسلمين في عصرنا تصدق فيهم هذه الصفات إلى حدِّ التطابق، والنتيجة كما نعلم؛ ولا يكون التغيير إلا بإعادة النظر والتوبة والمراجعة بناء على هذه المعاني المفصلة في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ..

من الفكر إلى الفعل

- «الأسباب يد الله تعالى في قدَره»، بها ينفُذ حكمُه، وهي ليست خارجة عن إرادته سبحانه؛ فـ«من ضيع الأسباب وطلب النتائج عصى، وكان كمن يرد يد الله تعالى ويطلب ذاته».
- من أسباب الهزيمة: اختلاف القلوب، والفُرقة، والبأس الشديد في الداخل؛ وأعظم الأسباب الإعراض عن منهج الله تعالى.
- واقع المسلمين اليومَ، في مواجهة المشركين واليهود؛ يستدعي التجنيد في كل المجالات والجبهات: العلمية، والعسكرية، والفنية، والإعلامية...
- للقراءة: للّواء محمود شيت خطاب مؤلفاته العسكرية حول السيرة النبوية، منها: «**الرسول القائد**»، «**دروس عسكرية في السيرة النبوية**»، «**أسباب انتصار الرسول القائد** ﷺ».

قال الله تعالى:

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿15﴾﴾

بذور المعنى

- ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: لم يذكر الله تعالى اليهود في السورة بالاسم، وإنما نعتهم بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ وكذا لم يذكر مشركي قريش بالاسم، ولكن قال عنهم: ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنَّ أجواء النصر في بدرٍ حدثت في العام الثاني من الهجرة، في شهر رمضان؛ أمَّا إجلاءُ بني النضير فكان في العام الرابع، في شهر ربيع الأول؛ والمدة الزمنية الفاصلة بينهما هي عام ونصف العام تقريبًا؛ وبالتالي فقد وصفها تعالى بأنها وقعت ﴿قَرِيبًا﴾ زمنيًّا. أو أنَّ القرب لمعرفتهم بتفاصيلها، فهي

في المتناول، ولا داعي للتفصيل فيها؛ وكان الأحرى بهم أن يعتبروا.

- ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: الوبال هو الشدَّة والضيق وسوء العاقبة؛ ومشركو مكَّة الذين قاتلوا النبيء ﷺ ذاقوا مرارة الهزيمة، وكانت لهم سوء العاقبة. وإضافةُ الوبال إلى ﴿أَمْرِهِمْ﴾ للتنبيه إلى أنَّهم هم الذين أرادوا ذلك، وأمروا به، وتسببوا فيه: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنَ اَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

- القاعدة الكلية أنَّ «الإنسان حين يفاجأ بفسادِ رأيه يعودُ على نفسه باللوم» وقد يعذِّب نفسه، وقد يتنكَّر لها؛ وكلُّ ظالم لا بدَّ أن يلقى هذا اليوم الذي يكتشف فيه الحق، اليوم الذي يذوق فيه وبال أمره.

- ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾: صفات العذاب في القرآن الكريم وردت حسب السياق، وحسب نوع العذاب، فمنه عذاب أليمٌ، وعذاب مهينٌ، وعذاب شديدٌ، وعذاب قريبٌ، وعذاب يومُ عظيمٍ... فتصريف المعنى، وورود ملائما لحيثيات المشهد القرآني، هو من تمام بلاغة القرآن الكريم.

التشغيل والتفعيل

- في التفريق بين أوصاف العذاب، بخاصَّة إذا كانت لحادثةٍ واحدةٍ أوصافٌ مختلفةٌ، حاول العديد من المفسِّرين وعلماء اللغة، وعلوم القرآن، بيان دقائق الفروق؛ غير أني لم أطمئن إلى تفسير معيَّن، والبحث يبقى مطلوبا ومستحثا. فكيف نعلل الفروق دون تكلُّف؟ للبحث.
- يقول أنور صالح: «لقد سنَّ الله تعالى النظر في سِيَر الأولين والآخرين، لمعرفة أسباب الظفر والتمكين، وأسباب الفشل والتراجع، فهل كتب على المسلمين عدم الاعتبار بحدثٍ ماضٍ، وعدم التفكير بما وقع لإخوان لهم في زمن قريب؟».
- منهجُ دراسة التاريخ تربويًّا، بات معلولا بالكثير من العلل؛ منها ما هو موضوعيٌّ، ومنها ما هو من «ما حول المنهج» أي باعتبار «مقاصد التاريخ»، وأسس الاعتبار منه، واتخاذه منصَّة للإقلاع الحضاريِّ، وفهم الأسباب والمقدِّمات، واستخلاص النتائج والثمرات، والخروج بالخطط والاستراتيجيات؛ وهنا مكمن الداء، ومنه المخرج وإيجاد الدواء.

من الفكر إلى الفعل

- الاعتبار بالسياق، وبمن مضى، هو من صفات المؤمنين؛ ومن لا يعتبر بالتاريخ يوشك أن يقع في أخطاء الذين من قبله، وهو لا يعلم.
- تدريس التاريخ يقصد منه العبرة، لا مجرَّد السرد والمتعة؛ فهل حققنا هذا الهدف في مقرراتنا التربوية؟ أم أننا لم نتجاوز بعد عتبة الحديث، والعدد، والوصف؟
- للنصر أسبابه، وللهزيمة أسبابها؛ ومن لا يتخذ أسباب النصر يذقه الله شرَّ الهزيمة، ولو بعد حين.
- للقراءة: «**عوامل النصر والهزيمة في ضوء القرآن الكريم**» أنور صالح أبو زيد.

قال الله تعالى:

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿16﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ ﴿17﴾

بذور المعنى

- ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾: يمثِّل الله تعالى فعلَ المنافقين، الذين وعَدوا اليهود بالخروج معهم ونصرتهم، وهم كاذبون مخادعون؛ يمثِّلهم بالشيطان الذي يحثُّ الإنسان بأن يكفر، ويعِده أن يكون له سندًا وعونًا وحصنًا؛ ثم حين يستجيب ويقع في شِراكه، يتبرأ منه هذا الشيطانُ، ويقول له: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾؛ ثم يزيد إمعانا في تعذيبه فيقول بكل وقاحة وصلفٍ:
- ﴿إِنِّيَ أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾: يعترف الشيطان أنَّه لا

يملك قوَّة ولا حولا أمام عذاب الله تعالى، فهو بالتالي يخافُه ويقدِره حقَّ قدره، وذلك يوم القيامة حين يُقضى الأمر؛ قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

- ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾: أي الشيطانُ والإنسان، المغوي والذي استجاب للغواية، المزيِّن والمزيَّن له؛ جميعُهم تنتهي به العاقبة إلى عذاب الله، وإلى نار جهنم، خالدين فيها؛ وكلُّ من كانت عاقبته إلى سوءٍ لا بد أن يتحمل مسؤوليته ويذوق ﴿وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، ولقد كان له عقل يميز به الحقَّ من الباطل، ووحي يحذِّره من مغبَّة ضلاله، وما هذه الآية لتاليها اليوم إلاَّ علامة تحذيرٍ؛ ولكنها يوم يتحقق الأمر تصير حجَّة على صاحبها، أي ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.
- ﴿وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ﴾ الذي يظلمون أنفسهم بتركها لوسوسة الشيطان، ويظلمون الحقَّ بالكفر والضلال؛ أو الشياطين الذين يظلمون الناس بدفعهم إلى المعصية

والخروج عن الجادة والصراط المستقيم. كِلا الفريقين هذا مصيره: ﴿الَّذِينَ اتُّبِعُواْ﴾ و﴿الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾.

- تذييل هذه الآية ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ﴾، وتذييل آية سورة إبراهيم: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ الفاصلتان تكمل الواحدة منهما الأخرى في المعنى، والقرآن الكريم يفسِّر بعضُه بعضا.

التشغيل والتفعيل

- الآية في وصفها لإغواء الشيطان ثم إعلانِ البراءة والتنصل ممن وقع في الخديعة والغواية؛ هو مَثَلٌ ليس مقصورا على الشيطان الأكبر، ولا على شياطين الجنِّ فقط؛ ولكنه بيان لحال شياطين الإنس كذلك؛ ذلك أن «المنطق الشيطاني» هو هكذا، لا يتغيَّر ولا يتخلف إلى يوم الدين؛ فكم من شباب أغراه مَن حوله بارتكاب مظالم أو مفاسد؛ فلمَّا قُبض على العصابة، كان الذي أغواه أوَّل من يتنصل من فعلته، ويسلمه للعدل والقسط، والعذاب والسجن؛ إذ لا رحمة بين المجرمين وإنما هي مصلحة تدور مع علاقتهم وجودًا وعدمًا.
- قول الشيطان للإنسان ﴿اكْفُرْ﴾ لا يشترط أن يكون

باللسان مسموعا بالآذان، وإنما قد يكون بالحال: بأن يزيِّن لهم الضلال، ويوسوس في صدورهم؛ أو بواسطةٍ، عن طريق شياطين الإنس: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

- في كتاب «**قواعد فقه الحضارة**» نقرأ: «ما من شكٍّ أنَّ ضرب الأمثال يقرِّب الفهوم، ويشحذ القرائح، وهو أسلوب ومنهج قرآني، وفي ذلك يقول بديع الزمان النورسي: «لقد أنعم عليّ سبحانه شعلةً من «ضرب الأمثال» التي هي من أسطع معجزات القرآن وأوضحها، رحمةً منه جَلَّ وَعَلَا، لِعجزي وضعفي وفقري واضطراري، لأُنير بها كتاباتي التي تخص خدمة القرآن الكريم. فله الحمد والمنة».

من الفكر إلى الفعل

- شياطين الجن والإنس لا يؤتمنون، فهم مع المصلحة الظرفية يدورون وجودا وعدما، ويخدعون من ينخدع لهم عند أول فرصة؛ والعاقل من اعتبر بغيره.
- الظلم مرتعه وخيم، وجزاء الظالمين أليم شديد، في الدنيا وفي الآخرة؛ ودوام دعائنا: «**اللهم إني أعوذ بك أن أظلِم أو أظلَم...**» الحديث.
- للبحث والتطوير: مجال الصور الإدراكية، والأمثال؛ وصناعة القناعة فكريا ومعرفيا وحضاريا.
- ضربُ الأمثال منهج تربوي عظيم، لو فعِّل في مدارسنا ومؤسَّساتنا التعليمية؛ لكانت له ثمرات طيبة.
- للقراءة: «**كتاب الأمثال**» للأصمعي. و«**قواعد فقه الحضارة**» محمد باباعمي (مخطوط)، بخاصَّة فصل «السيرة النبوية من خلال التمثلات والصور الإدراكية».

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ
وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرُم بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

بذور المعنى

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾: بعد أن عرض اللهُ تعالى أحداث إجلاء بني النضير، ثم فصَلَ القول في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفيمن جاء بعدهم؛ ثم بيَّن حال المنافقين والكفَّار في وهنِهم وخورهم؛ لفت نظر المؤمنين إلى قاعدة الوجود، ونبههم إلى غاية كلِّ موجود: «الإيمان، والتقوى»؛ فخاطب المؤمنين بأحبِّ صفاتهم إليهم: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإذا قالوا: سمعنا يا ربنا قال: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾: فأمرهم بما يزيد على الوصف النظريِّ، وبما يحقق الوصفَ العمليَّ، وبذلك يكتمل الإيمان

القلبي مع الإيمان بالجوارح، الإيمان بالقول مع الإيمان بالفعل، إنه الإيمان في أكمل صورة، وإنها التقوى في أجلى مظهر.

- ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾: جميع النفوس وجب عليها أن تنظر وتتفكر فيما قدمته ليوم القيامة؛ وقد عبر عن ذلك اليوم بـ«الغدِ»، دلالةً على قُربه؛ ولتسأل كلُّ نفس نفسها: ماذا قدَّمت من عمل صالحٍ أو طالحٍ؟ وماذا حصدت من خير أو شرٍّ؟ وهل تقبَّل مني أم لم يتقبل مني؟
- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: تكرار بليغ يفيدُ التأكيد للمعنى الأوَّل، مع إفادة معنى مخصَّص زائدٍ، وهو أنكم حين تنظرون ما قدَّمتم لغدٍ، افعلوا ذلك مستحضرين حقيقةَ التقوى؛ وذلك بينكم وبين أنفسكم، ولا أحد يملك أن يعرف سرَّكم وما أخفيتم من نية حسنة أو خبيثة، وعملٍ صالح أو طالح، إلاَّ قلوبكم وخفايا صدوركم.
- ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: الله تعالى خبيرٌ بما تعملون من حسناتٍ أو سيئاتٍ؛ ولا يملك الواحدُ منكم أن يكذِب على الله سبحانه، أو يكذِب على نفسه، وهو قد يملك أن يتوَّهم ويوهم الآخرين بغير المخفي من الحقيقة؛ فالذي يحاسِب يوم القيامة، ويعلم خبايا النفوس اليوم، هو الخبير بما تعملون، سبحانه.

التشغيل والتفعيل

- أصل التقوى هو الخشية والخوف، والتقوى هو الفارق بين إنسان وإنسان: «**لا فرق بين عربي وأعجمي إلاَّ بالتقوى**»؛ وهي وصيةُ الله تعالى لجميع البشر، ووصية الأنبياء، والوصية التي بينهم إلى يوم الدين. وكلُّ وصية غير الوصية بالتقوى هي أقل منها شأنا وقدرا، أو هي شعاع من نور يستمد من شمس التقوى.
- ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ قاعدة كليَّة في التوحيد، وفي التخطيط، وفي المقاصد، وفي اعتبار المآلات؛ وهو أمرٌ يتجاوز مجرَّد الشرح اللغوي، والحدود اللفظية؛ إلى فضاء الحقيقة الكونية، حقيقة أنَّ الحياة إنما نهايتها «غدُها»، وسبب وجودها «يوم لقاء الله»، والأرض التي يقف عليها العبد عاملا لغدٍ، هي الحياة الدنيا: الآن وهنا، اليومَ ومِن موقعي الذي كتبه الله لي. وفي هذا مطلق التسليم لله تعالى.

من الفكر إلى الفعل

- الآية دعوة لمحاسبة النفس قبل فوات الأوان، قال سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإنَّ أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية».
- ليس أعظم من الأمر بالتقوى، والوصية بها.
- لا بد اليوم من تفعيل جملة من المداخل المعرفية، والخروج بها من إطار التخصص إلى سعة الحركية الحضارية، ومنها: فقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه المآلات، وفقه المقاصد، وفقه مراتب الأعمال... من منطلق الرؤية الكونية التوحيدية.
- للقراءة: «**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**» أبو نعيم الأصفهاني (1038هـ)؛ و«**فقه التوقع: مفهومه وعلاقته بالنظر في المآل وفقه الواقع**» نجم الدين الزنكي. «**فقه المآلات: مفهومه وقواعده**» سعد الدين العثماني.

قال الله تعالى:

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿18﴾

بذور المعنى

- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾: لم يقل الله تعالى: «ولا تنسوا الله»؛ ذلك أنَّ من اتقى الله تعالى، ومن نظر فيما قدَّم لغدٍ، ومن علم أنَّ الله خبيرٌ بما يعمل، لا يصدر منه ذلك؛ وإنما النهي أن يكون مثلَ هؤلاء، ونسيان الله غير متوقَّع من مسلمٍ.
- نسيان الله هو ترك أوامره ونواهيه، وجعلها كأنها نُسيت وغابت عن الذاكرة، فلم يكترث بها ولم يذكرها ليعمل بها. ومن نسيان الله الاشتغالُ بالدنيا، وتضييعُ أمر الآخرة.

- ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: أي تركهم الله تعالى على غفلتهم ناسين أوامرَه ونواهيه، ونسيانُ النفس تعريضُها للمهالك وسوءِ المصير؛ فإذا لم يذكِّرهم الله تعالى وتركهم على نسيانهم هلَكوا. أو بما أنهم اشتغلوا عن الله سبحانه، وعن الإيمان، فقد أنساهم الله مصلحتهم العاجلة والآجلة، فشقوا في الدنيا، ونالوا العقاب الشديد في الآخرة.
- ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: ذهبوا بعيدًا في سوء الاعتقاد، فهم المبالغون في سوء الفعل، وهم الفاسقون حقًّا، فسقًا كاملا غير منقوصٍ.

التشغيل والتفعيل

- يطلق اسم الفاسق على الموحِّد غير الموفّي، وهو مرادفٌ للعاصي؛ ويطلق على الكافر الخارج من الملة، وهو مرادف للمشرك والكافر كفرَ شرك. فحكم الأوَّل في الدنيا حكم أهل التوحيد، وفي الآخرة إن تاب تاب الله عليه، وإن أصرَّ فحكمه حكم المصرِّ؛ وحكم الثاني في الدنيا والآخرة حكم الكافر والمشرك. فالفاسق إمَّا أن يكون بالاعتقاد وهو الشرك والكفر، أو يكون بالجارحة وهو كفر النعمة. والآية تحتمل المعنيين.

- للجمع بين قول الله تعالى في سورة التوبة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقوله في سورة مريم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ذهب المفسرون إلى أنَّ النسيان هنا بمعنى الترك، أي تركهم الله تعالى لأنفسهم، وهو معنى ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أو أنَّ الآية جاءت على أسلوب المشاكلة والمقابلة والمجاراة، من مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(سورة الأنفال).

من الفكر إلى الفعل

- من نسي الله أنساه الله تعالى نفسَه.
- ينبغي الحذر من أسباب الفسق، والكفر، والشرك.
- حمل النسيان في حقه تعالى على معنى الترك، أو المشاكلة، من أصول التوحيد؛ ذلك أنَّ النسيان من صفات النقص في البشر، والله سبحانه موصوف بصفات الكمال، منزه عن صفات النقص، سبحانه جلَّ شأنه.
- «من تاب تاب الله عليه» والتوبة مفتوح بابها ما لم يغرغر.
- للقراءة: «**كتاب أعز ما يطلب**» للمهدي ابن تومرت (ت. 524هـ)..

قال الله تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿20﴾﴾

بذور المعنى

- ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: تقريرٌ من الله تعالى لحقيقةٍ كونيَّة، وقاعدة كلية لا تتخلَّف، وهي: أنَّ الناس فريقان لا ثالث لهما ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، وأن لا مساواة بينهما في المبدإ ولا في المآل، لا مساواة في حركية الدنيا ولا في حساب الآخرة؛ ذلك أنَّ منطق العدل لا يقبل أن يسوي بين مؤمن وكافر، بين مَن نسي الله ومن ذكره، بين مَن نصر الله ومن حارب الله ورسوله... ولذلك لا يستويان في الدنيا ولا في الآخرة.

- ورد «نفي الاستواء» في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، منها: ﴿لاَ يَسْتَوِي﴾، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾، ﴿وما يستوي﴾، ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾... وجميعها تقرر حقيقة أنَّ الحق لا يستوي مع الباطل، وانَّ النافع لا يستوي مع الضار، والخير لا يستوي مع الشرِّ، والجنة لا تستوي مع النار، ورضا الله لا يستوي مع سخطه...
- كما أنَّ الجنة لا تستوي مع النار فإنَّ أصحابهما لا يستويان عقلاً وشرعًا، حُكما وحكمة، نظرا وواقعا؛ ولو أنهما استويا في المآل لجاز أن تكون الدنيا وما فيها، وأوامر الشرع وما دعت إليه، والزواجر وما نهي عنه؛ لجاز أن يكون كلُّ ذلك عبثا وفوضى؛ إذًا لما صلُح أمر الدنيا، ولما استقرَّ الناس على معيار يحكم وجودهم، ويسطِّر معالم مسيرهم، ويرسم لهم حقيقة مصيرهم.
- ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾: لا ريب أنَّ الذين صاحبوا ما يوصل إلى الجنة من إيمان وطاعة، ومِن علمٍ نافع وعمل صالح، ومن جهادٍ في سبيل الله ومقاومةٍ للظلم وأهله... لا ريب أنهم هم الفائزون يومَ الحساب؛ وعلى العاقل اختيار اللحاق بهؤلاء، وبهذا الصف الناجي الفائز السعيد؛ وليحذر أن يكون من الآخَرين، الذين يكونون من الخاسرين، والهالكين، والأشقياء.

- والآية اقتصرت على ذكر مصير الفريق الأوَّل، تاركة للعقل أن يستنتج مصير الفريق الثاني، ولمن كان له أمارة من فكر فإنَّ الجواب لا يخفى على أحدٍ. ومما يدل على مصير الفريق الثاني حصرُ الفوز على الفريق الأول ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾.

التشغيل والتفعيل

- في سورة المجادلة عبَّر الله تعالى عن أصحاب الجنة وأصحاب النار، بحزب الله وحزب الشيطان؛ ثم كان المصير: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وفي سورة الشورى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.
- يقول الشهيد سيد قطب في تفسير هذه الآية: «لا يستويان طبيعة وحالاً، ولا طريقا ولا سلوكًا، ولا وجهة ولا مصيرًا؛ فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا في طريق؛ ولا يلتقيان أبدا في سمة؛ ولا يلتقيان أبدا في خطة؛ ولا يلتقيان أبدا في سياسة؛ ولا يلتقيان أبدا في صف واحد في دنيا ولا آخرة...»..

من الفكر إلى الفعل

- في الحديث الشريف: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن في الله**» فإنا نظن في الله خيرا، ونسأله أن يجعلنا من أصحاب الجنة، ويغفر لنا ذنوبنا.
- سمع سعد بن مالك ابنا له يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها وحريرها ونحو هذا؛ وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ونحو هذا. فلما صلى قال سعد: قد سألت الله خيرا كثيرا وتعوذت من شر عظيم. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل**».
- للمطالعة: «**المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم**» أبو الأعلى المودودي.

قال الله تعالى:

لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الاَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ 21

بذور المعنى

﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾: يريد الله تعالى أن يوجِّه الإنسان إلى النبع الذي به يستقي معاني الحق وأسباب النجاة في الدنيا والآخرة، وليكون من ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾؛ هذا المعين الذي لا ينضب هو القرآن الكريم، لا ينافسه في هذه الخيرية أيُّ كتاب آخر؛ ولقد ضرب الله تعالى مثلاً ليقرر هذه الحقيقة الكونية؛ فاختار لذلك مادة صلدة، يُضرب بها المثل في القساوة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوَ اَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

- ضرب الله مثلاً بالجبل الذي يعطي صورة عن الضخامة والكبر والثبات إضافة إلى القسوة والشدة؛ فقال: ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾: فهو يخشع حقيقةً لا مجازًا، ولقد اندكَّ الجبلُ حين تجلَّى ربه له في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾. وفي آية أخرى: ﴿وَلَوَ اَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الاَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾.
- ﴿مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾: لو أنَّ القرآن الكريم نزل على جبل لانشقَّ بعد أن يخشع لله تعالى؛ والجبل عنوانٌ للمخلوقات الأخرى؛ ذلك أنَّ جميع ما خلق الله تعالى، صغُر أم كبُر، دقَّ أم عظم، من العالم السماوي أم من العالم الأرضي، جمادا كان أم نباتا أم حيوانا، أم من أي صنف آخر كان... جميع ذلك لو أنزل الله عليه قرآنَه لانشقَّ ولتصدَّع؛ لما يحمل من رسالة تنطق بأنَّ هذا كلام الله جَلَّجَلَالُهُ، وبأنَّ المخلوقات جميعًا منصاعة لإرادة الله سبحانه؛ ومن تمام الانصياع الخشوعُ والخضوعُ والتذللُ عند سماع كلام الحكيم.
- ﴿وَتِلْكَ الاَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: ضرب الأمثال أسلوب تربويٌّ قرآنيٌّ، تفنن فيه كلام الله تعالى بصورةٍ بديعةٍ؛ ذلك أنَّ المثل و«الصورة الذهنية الإدراكية» أشدُّ وقعا على العقل والقلب، من النص

التقريري المباشر، في أغلب الحالات؛ غير أنَّ الذي عطَّل عقله وقلبه ولم يتفكر فيما ضرب له من مَثل، لا ينفعه هذا المثل ولا يغير فيه شيئا. فالمثل أساسًا يضرب للمتفكرين.

التشغيل والتفعيل

- عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيء ﷺ قال: «**اقرأ عليَّ القرآن**»؛ قال ابن مسعود: يا رسول الله، كيف أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحبُّ أن أسمعه من غيري**». قال: فقرأ عليه حتى إذا بلغ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ وقال: «**من سرَّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه بقراءة ابن أم عبد**».
- في كتاب ذي قربتي، جملة مقالات تحت سلسلة «القرآن الكريم: شمولية تأبى القيد»: «يكفي القول عن القرآن: «إنه كتاب حياة»، بل هو «الحياة بعينها»، والحياة لا تعرف التصنيف ولا التجزيء ولا الاختزال...وهو «كتاب حقٍّ»، والحقُّ كليٌّ شموليٌّ يرفض التقطيع والتفصيل والتوصيل... وهو كتاب حواسٍّ، وقلبٍ، وعقلٍ، ووجدانٍ، وحدسٍ، وإلهامٍ... يأبى أن يُسجن

مع العلوم في سجن العقل والمنطق وحده...؟ ألاَ ما أعظم كلام الله تعالى!».

من الفكر إلى الفعل

- إذا كان ما ورد في الآية هو الحال مع الجبل في خشوعه وتصدُّعه لسماع ذكر الله؛ فما بال قلوبِ البشر ـ وهي تستقبل رسالة السماء، وتفهم ما فيها، وتعرف أنه «الحقُّ من ربك» ـ ما بالها لا تخشع ولا تلين؟ إلاَّ ما يكون من قلوب المؤمنين الذين تخشع قلوبهم وتلين وهم يسمعون كلام الله تعالى، متناغمين في ذلك مع السموات والأرض، والخلق أجمعين.
- الخشوع لتلاوة القرآن، وحضور القلب حين التفكر فيه وتدبره، من أعظم صفات المؤمنين.
- وأعظم أثر للقرآن الكريم ما خلف عملا وامتثالا لأمر الله تعالى.
- لا يُضرب المثل إلاَّ لمن كان له قلب، وكان من المتفكرين لا من الغافلين اللاهين.
- للقراءة: «**مجمع الأمثال**» للميداني أبو الفضل (ت. 518هـ)؛ و«**التصوير الفني في القرآن الكريم**» لسيد قطب، و«**ذي قربتي**» محمد باباعمي.

قال الله تعالى:

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (22)

بذور المعنى

- ﴿هُوَ اللَّهُ﴾: إذا أطلق ضمير الغائب ﴿هُوَ﴾ في القرآن الكريم وفي الأدبيات الإسلامية انصرف إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ؛ لأنه سبحانه هو الحاضر أبدا، وإنما وصِف الضمير بالغائب للتعبير دون مرادِ حقيقة الغياب؛ ولكونه غيبًا بالنسبة للمخلوق؛ فإذا سأل عنه، كان الجواب: هو الله.
- ﴿اللَّهُ﴾: علَم على الذات العلية، وهو اسم غير مشتقٍّ. وهو سبحانه واجبُ الوجود لذاته، المستحقُّ لجميع المحامِد، المتَّصف بالكمال، المنزَّه عن النقص.

- واسم ﴿اللَّهُ﴾ لا يُتكلَّف البحث عن معناه، ولا يطلق على أحد المخلوقات تعالى الله؛ فهو اسمٌ للتعلُّق لا للتخلُّق.

- ومن العلماء من قال: هو اسم للذات العلية، وجميع ما سواه إنما هي صفات له: الرحمن، الرحيم، العليم، الصمد...

- ﴿الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: الجملة إقرار بالوحدانية واعتراف بالتفرد في ألوهيته سبحانه؛ وهي شطر من «جملة التوحيد»، و «كلمة الإخلاص»، والداخل في الإسلام مأمورٌ بها اعتقادا وتلفُّظا وعملا. ولقد جاءت على صيغة بدئ فيها بالنفي ثم الإثبات؛ ذلك أنَّ مسألة وجود الله تعالى يناقَش فيها الملحد، أمَّا الوحدانية فهي توحيد المؤمن، ويحاجَج بها الكتابيُّ والمنافق، وهما المخاطبان في هذه السورة.

- ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الغيب هو ما خفي عن الإنسان وعن جميع المخلوقات علمُه وإدراكُه، وهو ما لا يدركه الحسُّ، ولا يصل إليه العقل. فلا يمكن القولُ في الغيب إلاَّ بدليل سمعيٍّ قطعيِّ الثبوت قطعيِّ الدلالة.

- والغيب منه مطلقٌ وهو الذي لا يعلمه إلا الله، ولا يطلع به أحدا من خلقه؛ وغيبٌ نسبيٌّ، هو ما قد يطلع الله تعالى به أحدا من خلقه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ

عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (62) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، وغيبٌ اعتباري وليس حقيقيًّا، وهو ما يمكن للعقل أن يدركه، مثل المكتشفات والمخترعات، التي تكون غيبا اليوم، ثم تُعرف فتصير شهادة.

- ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾: الله سبحانه، عالم الغيب والشهادة، رحمن ورحيم في العالمين؛ فما كان غيبا عنَّا لولا رحمة الله تعالى لصار هاجسًا ومحلاً للخوف، وما كان مشهودا لنا هو أبدا يجري في صورة تحيط به رحمة الله تعالى، ولولاها لهلكنا ولما استطعنا أن نعيش طرفة عين. وهو سبحانه رحمن رحيم بأن سترنا وهو عليم بنا؛ ولو علم إنسانٌ ما نخفي فإنه قد يفضحنا، وليس ذلك من صفات الله تعالى في شيء.
- وهذه الجملة شطر من البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ التي هي آية من كلِّ سورة، وعلامة على كلِّ بداية وافتتاح، وعنوان كلِّ تسليم واستفتاح لله الرحمن الرحيم.

التشغيل والتفعيل

- الغيب والشهادة يستويان عند الله تعالى، فلا يوصف أنه أعلم بواحد دون الآخر، كما هو حال المخلوقات:

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

- مما يُسأل الله تعالى به: «يا علاَّم الغيوب، يا غفَّار الذنوب، يا ستَّار العيوب، يا كاشف الكروب».
- رحمة الله تعالى تشمل الطائع والعاصي، الموحِّد والكافر؛ ولكنها يوم القيامة لا تشمل إلاَّ من مات مؤمنا موحِّدا؛ قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.
- من شعر التوبة لأبي نواس قوله في مطلع قصيدة:

سبحان علام الغيوب عجبا لتصريف الخطوب

من الفكر إلى الفعل

- ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ هو أمر بالدعاء بأسمائه العلية كلها.
- الإيمان بالغيب هو صمَّام الأمان من كلِّ سوء وفساد، وبراءة من كل ذنب ومعصية، وهو برُّ الأمان في كل الأحوال والأزمان.
- ذهب بعض العلماء إلى أنَّ اسم الله الأعظم هو «الله» ذلك أنه جامعٌ لكلِّ الصفات العليا.
- كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب: «**لا إله إلا اللَّه العظيم الحليم، لا إله إلا اللَّه ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا اللَّه ربُّ السموات وربُّ الأرض ورب العرش الكريم**».
- للقراءة: «**لوامع البينات في الأسماء والصفات**» للإمام فخر الدين الرازي (606هـ).

قال الله تعالى:

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَّامُ الْمُومِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ 23

بذور المعنى

- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: تكررت جملة الشهادة؛ لأنها أصل كلِّ توحيد، وعنوانُ كلِّ تنزيه؛ وهو سبحانه الله الذي يتَّصف بالصفات اللاحقة، ولا أحد يتصف بها على الحقيقة إلاّ الله جَلَّ جَلَالُهُ.
- ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: قال رسول الله ﷺ: «**خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**».
- وقال ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء**

الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

- ﴿الْمَلِكُ﴾: هو الذي ملك كلَّ شيء من عالم الغيب والشهادة، وهو مالك الملك، فهو يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا ينافسه فيه أحدٌ من خلقه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾. وكلُّ من ملك شيئا إنما يستمده منه سبحانه، فمُلك المخلوق على المجاز لا على الحقيقة؛ وملك الله سبحانه على الحقيقة لا على المجاز.

- ﴿الْقُدُّوسُ﴾: المتنزه تنزيها عظيما عن جميع صفات النقص، والقدوس هو القمَّة في النزاهة والطهارة من كلِّ ما يَعيب. تقول الملائكة في تسبيحها لله تعالى: «**سبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والروح**». وفي مستهل سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

- ﴿السَّلَامُ﴾: كلُّ مادة السلام منه وله وإليه سبحانه؛ فهو ذو السلامة من كل نقص، وهو مصدر كلِّ سلام، وهو الذي يسلِّم المؤمنين من كل مكروه، وهو الذي يسلِّم على المؤمنين في كل حين.

- حين بلغ أمنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تحية الله لها: «**إنَّ ربكِ يحييكِ بالسلام**»، قالت: «الله السلام» ولم تقل: وعَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فهو سلام في ذاته.

- سبحانه اقتطع لدينه من السلام اسما، فكان الدين هو «الإسلام».

- ﴿الْمُومِنُ﴾: جامع لكل معاني مادة «أمن»، فهو مؤمن بما نزَّل من حقٍّ، مؤمِّن خلقَه من الفزع الأكبر، يصير خلقُه آمنين من جوره لانتفاء الجور عنه؛ أو هو المصدق للمؤمنين في قولهم وفي شهادتهم على الناس يوم القيامة.

- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطى صفةً من صفاته لمن آمن به، فسماه: مؤمنًا، وسمى روح دينه «الإيمان». وهذا من الله تعالى مزيدُ تكريم وتشريف.

- ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾: المسيطر والقيّم والمتصرف في مُلكه سبحانه، لا أحد يشاركه في ذلك. وهو سبحانه الرقيب الحافظ لكلِّ شيء، القائم على خلقه، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فهو مهيمن، حفيظ، عليم، رقيب على كلِّ نفس؛ لا تخفى عليه خافية .

- ﴿الْعَزِيزُ﴾: العزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، وهو سبحانه الذي ليس له مثيل في القدر والشأن والعظمة. تقدم في أول السورة هذا الاسم لله تعالى، وسيأتي آخر السورة، مقرونا بالحكيم: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أمَّا اسمه الحكيم فلم يرد في هذه الآية، وأمَّا العزيز فورد، وهذا

يترك مجالا للسؤال: ما الحكمة من ذلك؟ هل لكون السياق هو سياق صفات الجلال، والحكمة من صفات الجمال؟

- ﴿الْجَبَّارُ﴾: هو من مادة جبر؛ ومن معانيه أنه سبحانه جابرُ الكسر، أي مُصلحه؛ وهو المنعوت بالجبروت، الذي تنفذ إرادته، ويجبر غيره على ما يشاء، ويقهرهم على ما يريد.
- ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾: هو كبيرُ الشأن وعظيم المقام؛ وهو الذي ارتدى رداء الكبرياء والعظمة، لا ينازعه فيه أحد ﴿وله الكبرياء في السموات والارض، وهو العزيز الحكيم﴾ وفي الحديث القدسي: قال الله عَزَّوَجَلَّ: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»، وهذه الصفة من صفات الجلال لله سبحانه.
- ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: هو المنزَّه عن كلِّ ما اتخذته الناس شريكا له، في الذات أو في الصفات أو في الأفعال؛ منزَّه عن كل ذلك تنزيها مطلقا.

التشغيل والتفعيل

- الله تعالى يوصف بالمتكبر، ولا يجوز للإنسان أن

ينازعه هذه الصفَة، وأن يتكبر أو يتصف بأي معنى من معاني الكبرياء، قال تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وفي الحديث الشريف: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**».

- لا يجوز للإنسان أن يسمي نفسه أو يصفها بـ «مالك الملك»، قال رسول الله ﷺ: «**أخنع الأسماء عند الله رجلٌ تسمى بملك الأملاك**».

من الفكر إلى الفعل

- عن أبيّ بن كعب قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا سلم في الوتر قال: «**سبحان الملك القدوس**».
- كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته، قال: «**أستغفر الله، ثلاثاً، اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**».
- أسماء الله تعالى، وصفاته العليا، لا ينفع التلفظ بها مع العمل بخلاف فحواها ومؤداها؛ فمن ذكر الله تعالى باسم من أسمائه وجب عليه أن يمتثل لما يأمره به سبحانه.

قال الله تعالى:

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

بذور المعنى

- ﴿هُوَ اللَّهُ﴾: ثالث مرة يتكرر ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ ثم يثنى بأسمائه الحسنى، وبصفاته العليا؛ ويوصف بجميع المحامد والكمالات، وينزه عن جميع المثالب والنواقص.
- ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾: ﴿الْخَالِقُ﴾ هو الموجد للأشياء من عدمٍ، وهو المقدِّر لها.
- و﴿الْبَارِئُ﴾ هو الذي يسوِّي خلقه على هيئة صالحة ليؤدي مهمته، وذلك بأن جعله مميزا حسب الوظيفة التي خلق لها، قال جلّ من قائل: ﴿فَتُوبُواْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾.

- و﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد للأشياء على صورها وأشكالها التي أرادها، ففي سورة غافر قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.
- والأسماء الثلاثة لله تعالى مراتبُ في سلم الخلق: فالتصوير فرع عن البرء، والبرء فرع عن الخلق؛ والخلق أعمُّ منها.
- قال تعالى: ﴿ يَآ أَيُّهَا الاِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ ففي الآية ترتيب من الخلق ﴿خَلَقَكَ﴾، إلى البرء ﴿فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ﴾، إلى التصوير ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ وكأنها تفسير وبيان لهذه الآية.
- ﴿لَهُ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾: أي هي أسماء حسنُها من ذاتها، وحسنُها في حقيقتها؛ فهي حسنة وإن لم يذكرها أحدٌ من الخلق، وهي حسنة وإن لم يحسِّنها أحدٌ.
- وله تعالى أسماءٌ حسنى غير هذه التي وردت في هذه الآيات، وهي كثيرة: ﴿وَلِلَّهِ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾.
- ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾: في أول السورة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾، وهنا الفعلُ مضارع

أي يفيد التكرار والمداومة على التسبيح، أمَّا الماضي فيفيد التحقق من الأزل؛ والميم في ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ للتفريق بين ما وجودُه في السموات والأرض معًا، وما هو موجود في السماء فقط، أو في الأرض فقط؛ كلُّ أولئك سبح لله، ولا يزال يسبح له، لا يتعب ولا يفتُر.

وعلى رأس هؤلاء ملائكة الله المكرَمون: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ (91) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾.

- ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: هو صاحب العزة والكرامة والحكمة في كلِّ خلقه وقوله وفعله وحُكمه... وفي كل ما يصدر من الله تعالى، إذ الكمال هو صفته، والنقص مستحيل في حقه. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التشغيل والتفعيل

- تعدُّد أسماء الله تعالى لا يعني تعدد المسمَّى، فالمسمَّى واحد، والأسماء مختلفة عديدة، وهي جميعها متصفة بالحسن، والجمال، والجلال، والكمال: ﴿قُلُ ادْعُوا اللهَ أَوُ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾.
- انتقلت صفات الله تعالى من الوصف إلى الاسم؛

فصارت أسماء له سبحانه.

- في حديث ضعَّفه بعض العلماء، جاء في فضل قراءة أواخر سورة الحشر: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السّميع العليم من الشيطان الرجيم؛ وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر؛ وكَل الله به سبعين ألف ملك يصلُّون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة**».
- ولا ريب أنَّ لتلاوة هذه السورة فضلٌ عظيمٌ، وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه «**لا ينام حتى يقرأ المسبِّحات، ويقول: إنَّ فيها آيةً كألف آيةٍ**». وذكر بعضُ العلماء أنها آية ﴿هُوَ الاَوَّلُ وَالاَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ من سورة الحديد، وقال بعض هي أواخر سورة الحشر.

من الفكر إلى الفعل

- اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى؛ أن تجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، اللهم اهدنا وسددنا.
- في الحديث الشريف: «**ما أصاب عبدا همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا**».
- وجب على المسلم أن يسأل نفسه عن معاني سورة الحشر، بخاصة ما كان من أحكام العلاقة باليهود والكفار والمشركين والمنافقين، وكذا العلاقة بالمؤمنين: ترى ما حدُّ العمل بها؟ وماذا فرطتُ في حقها؟ وعمَّا سيسألنا الله يوم القيامة، مما ضيعنا؟
- للقراءة: «**نحن والحضارة الغربية**» أبو الأعلى المودودي؛ و«**خواء الذات والعقول المستعمَرة**» مراد هوفمان.

فهرس الآيات

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾ 20
﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ...﴾ 25
﴿وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللهُ...﴾ 32
﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ...﴾ 37
﴿وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ...﴾ 41
﴿مَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ...﴾ 46
﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ...﴾ 52
﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالاِيمَانَ...﴾ 57
﴿وَالَّذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ...﴾ 63
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا...﴾ 68
﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي... ﴾ 73
﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ 78
﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ...﴾ 82
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ 87
﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا...﴾ 91
﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ...﴾ 95
﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ...﴾ 99
﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لآ إِلَهَ...﴾ 104
﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لآ إِلَهَ...﴾ 109
﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ...﴾ 115